٨٠

مجلة
روايات أحلام

العذراء والمحبوب

مجلة روايات أحلام

العذراء والمجهول

... أدركت أستيرا أنها تعيش في الوقت الضائع، فلم يبقَ لها إلا القليل القليل حتى تجد نفسها في الشارع مع طفلة ليست لها. لذا قررت أن على أحدٍ تحمل المسؤولية ولم يكن هناك أفضل من زاكاري نورتنغاتون..

هل كان اختياراً مناسباً؟ لا تستطيع أن تعرف إلا بالتجربة وهكذا اقتحمت مكاتب شركته رغم الصعوبات يتقدمها صراخ الطفلة وخاطبت الرجل المذهول قائلة: هذه الطفلة طفلتكم وعليكم تحمّل مسؤوليتها...

لبنان ٢٠٠٠ ل.ل.	الإمارات ٦ د.	مصر ٤ ج.	ليبيا
سوريا ٥٠ ل.س.	قطر ٦٠٠ ر.	المغرب ١٥ د.	اليمن
الأردن ١ د.	البحرين ٦٠٠ ف.	تونس ١٥٠ د.	السودان
الكويت ٥٠٠ ف.	السعودية ٧ ر.	عمان ٦٠٠ ب.	العراق

١ ـ طفلة لأمين

أجهشت الطفلة بالبكاء فنزلت أستيرا مرة أخرى وهي تكاد تبكي ولكنها لم تلبث أن أخرجت نفسها من اكتئابها، ودخلت إلى غرفة النوم لتتناول ميرا من مهدها.

دندنت للطفلة ذات الشهرين من العمر.

ـ أعرف أنني مخطئة، وأن عليّ ألا أحملك كلما تذمرت.. لكن، لمَ لا يدللك أحد؟ فقد اختفت أمك، وأبوك غير مهتم، وذلك السمين القذر فيكتور في الأسفل يكره سماع تمارين رنتيك.

شرعت تسير بالطفلة جيئة وذهاباً وما أراحها أن سكتت الطفلة.. وخوفاً من عودتها إلى البكاء من جديد حملتها إلى غرفة الجلوس وجلست معها.

وفيما كانت تضم الطفلة إليها عادت مشاغل أستيرا تدور في رأسها.. ماذا ستفعل؟ ماذا ستفعل؟ مضى على اختفاء غولي ثلاثة أسابيع، فمتى تعود؟

نظرت إلى ميرا بقلق فرأتها تغط في النوم.. همست بلطف: «الغلطة غلطتك».

لكن، لم تكن غلطة ميرا فالتينا نورتنقاتون. فهي لم تطلب المجيء إلى هذا العالم.. في الواقع، لو أن ذلك الجرذ القذر فايغل نورتنقاتون نفّذ ما يريد، لما أنجبتها أمها فلم يسرّ ذلك

الرجل عندما عرف أن غولي حامل، وكان رده طلب الإجهاض غير أن غولي رفضت.

عرفت أستيرا أن صديقتها أملت بعد إنجاب الطفلة أن يحبها الأب الذي يحب الأم، على ما يزعم حباً شديداً.

مسكينة غولي، أحبت نايغل كثيراً، وآمنت أن كل شيء سيكون على ما يرام. ولكن الشكوك بدأت تترسخ حين اتصلت به من المستشفى تخبره بأنهما رزقا ابنة جميلة. وكان رده فظاً إذ قال: «وما الجديد في هذا؟».

عندما روت ما جرى لصديقتها أستيرا شعرت الأخيرة بالغضب ودفعها شيء ما للذهاب إلى منزله لتواجهه ولتطالبه بتحمل مسؤولياته.

لكن غولي توسلت إليها: «أرجوك، لا تذهبي، فسيزيد ذهابك الأمر سوءاً إكراماً لي لا تتدخلي».

فكان أن ابتلعت غضبها ولم تتدخل.. ومع ذلك لم تستطع الابتعاد عن التدخل على جبهة أخرى.. فبعد انقطاعه عن الاتصال بغولي أو زيارتها ذهلت الأم عن الطفلة وكادت تفقدها.. وفقدت كل شوق أو اهتمام وهذا ما جعل أستيرا تدفعها اضطراراً إلى إظهار الاهتمام بالجسد الصغير الهش.

أخذت أستيرا أسبوعين من إجازتها السنوية لتساعدها. ولكن في نهاية الأسبوعين، وجدت نفسها تحمل مسؤولية الطفلة ومتطلباتها، وربما هذا ما دفع غولي إلى اللجوء إلى عادتها القديمة «الفرار» فقد عادت أستيرا يوماً من العمل ووجدت أن غولي قد تركت ميرا مع جارتها روبيلا، ورحلت.

تحركت ميرا بين يدي أستيرا، لكنها لم تستيقظ.. فعادت أفكارها إلى الليلة التي سبقت رحيل غولي.. ففي تلك الليلة

حاولت إقناعها بالتفكير في الطفلة أكثر من التفكير في حبيبها، وذكرتها بأنها لن تستطيع ترك الطفلة قبل أن تسجلها رسمياً، إلا إذا أرادت أن تخالف القانون. وسألتها:

- لم تغيري رأيك بالنسبة للاسم الذي ستطلقينه عليها؟

- لا.. ستكون ميرا ڤالنتينا نورتنغاتون.

وهذا ما جعلها تظن بأن غولي قد بدأت تهتم بالطفلة.. ولكنها وصلت إلى البيت في الأمسية التالية واكتشفت مدى خطأها. قابلتها روبيلا هانت، جارتهما في الطابق السفلي في الردهة.

كان على وجه روبيلا ما جعلها تغير تحيتها إلى سؤال: ماذا..؟

- الطفلة نائمة عندي.. وغولي رحلت.

- رحلت!

وسارعت روبيلا إلى شرح ما حدث اليوم عندما أتت غولي إليها وهي تمسك حقيبة في يد، والطفلة في الأخرى.

- قالت إن عليها الرحيل.. وطلبت مني الاهتمام بالصغيرة إلى حين عودتك.

قاطعتها أستيرا: «وهل أخبرتك إلى أين ستذهب؟»

- حاولت أن أسأل ولكنني لم أفهم شيئاً منها. بالمناسبة أطعمت ميرا.

- من الأفضل أن أحملها إذن.

ما إن حملت الطفلة حتى بدأت علامات القلق تظهر على روبيلا:

- اسرعي، فسيعود ڤيكتور إلى المنزل بعد ربع ساعة.

أسرعت أستيرا إلى شقتها فهي تعرف خير معرفة أن ڤيكتور

زوج روبيلا سيصبح حين يصل: ألا يمكن إبقاء هذه الطفلة ساكتة! ولن يقبل بوجودها في سريره.

وضعت أستيرا الطفلة النائمة من يدها، وأحضرت دليل الهاتف.. فقد بدا لها أن نايغل الذي يحب غولي حقاً يعرف أين هي.

وجدت رقم شقته بدون صعوبة.. فقد كان مدوناً تحت اسم أسود بارز لمؤسسة نورتنغاتون هولدنغ، المؤسسة التي يملكها شقيقه المتحجر الذي لا يلين.. وبدأت أستيرا تطلب الرقم ولكنها فكرت بعض الشيء في شقيق نايغل صاحب مؤسسة نورتنغاتون الذي لم تقابله من قبل.. إن رجلاً قادراً على إنهاء حياة شقيقه العملية بطرده من مؤسسته غير جدير بالمعرفة. سرعان ما تلاشى الأخوان من أفكارها التي انصبت على غولي مجدداً، فقد أدركت أنها بمحاولة إيجادها، ستصيبها بأفدح الأضرار! فسارعت تعيد السماعة إلى مكانها.

وفيما أستيرا غارقة في أفكارها، رن جرس الهاتف فجأة.

اختطفت السماعة كالبرق وسمعت صوت صديقتها، فصاحت متنفسة الصعداء: «غولييت أين أنت؟»

ردت غولي بصوت كئيب صريح:

- أحتاج للانفراد بنفسي.

- أنهم هذا.. لكن..

- اعتني بميرا، إكراماً لي، حتى أدبر أموري! ما كنت لأتصل بك، لكنني فكرت فجأة.. أن على أحد والدي الطفلة، إظهار بعض الإحساس بالمسؤولية تجاهها.

- ساعتني بها طبعاً. ماذا جرى لك غولي؟

- لقد أنكر نايغل أبوته للطفلة.

شهقت أستيرا: «ماذا فعل؟ أهذا ما قاله لك؟»

كافحت غولي لتسيطر على نفسها: «ما قاله يؤدي إلى هذا المعنى. لقد ذهبت لأسجل ميرا هذا الصباح رسمياً ولكنني وجدت أنني أستطيع إطلاق أي اسم عليها إلا اسم عائلة الأب لأن ذلك يقتضي موافقته ولم أستطع إقناعه بهذا بل قال إنه تركني منذ مدة».

سألت أستيرا: «لم يوافق؟»

أجهشت غولي بالبكاء من جديد: «اتصلت به، وطالبته بمقابلتي في مكتب التسجيل ليوقع الأوراق ولكنه.. ولكنه.. قال إنه لن يوقع».

صاحت أستيرا: «آه، حبيبتي».

مرت لحظات حاولت فيها غولي التوقف عن البكاء، ثم قالت: «أريد وقتاً يساعدني على إخراج نايغل من تفكيري، وقتاً لأتقبل فكرة انتهاء كل ما كان بيني وبينه. على الرغم من تسجيلي الفتاة باسمه بدون موافقته، أحتاج إلى الوقت أستيرا لأستجمع شتات نفسي».

- أمهلك الوقت الذي تريدينه حبيبتي.

ولم تكن أستيرا واثقة من أنها لن تجهش بالبكاء هي أيضاً.

ردت غولي تحاول المزاح: «قد أحتاج إلى سنة».

ردت المزاح: «ولِمَ الأصدقاء إذن».

- كان يجب أن أطلق اسمك على الطفلة.

- يا للمسكينة! ستكون سعيدة لأنك لم تفعلي.

قالت غولي بحزن: «اعتني بها استيرا»

وانتظرت حتى تلقت الوعد، ثم تنهدت: «سأحتاج إليها حين عودتي».

وأقفلت الخط.

اعتقدت، أن صديقتها ستعود في غضون أيام، فاتصلت برئيسها في الصباح التالي. والسيد شلنجر لم يبد حماساً لطلب إجازة تدوم أسبوعاً لكنه وافق على اقتطاع هذه الأيام من إجازتها.

كانت ميرا ذلك الصباح مشاكسة إلى أبعد حد ولكنها أخيراً توقفت عن البكاء، ونامت فاستغلت أستيرا الفرصة وقامت بزيارة روبيلا.

عادت بعد دقائق إلى شقتها لترتب ما أصبح بسرعة، شقة متسخة.. ربما كان صاحب الملك على حق حين اشترط عليها في عقد الإيجار عدم وجود الأطفال.

شعرت أستيرا بالإرهاق في منتصف النهار وبدأت تجد أن الوعد الذي قطعته لصديقتها بات يمتزج بالعجز فليس لها خبرة مع الأطفال. ماذا لو كانت الطفلة مريضة لا مشاكسة كما تظن؟

في وقت مبكر من بعد ظهر ذلك اليوم، حملتها إلى عيادة الطبيب فيدل، الذي قال لها بعد ما عاين الطفلة:

- لا حاجة إلى القلق. إنها في عافية تامة الصحة ولا تعاني من مشكلة، المشكلة ليست مشكلتك بل مشكلة الوالدة! كيف حالها على فكرة؟

كان الطبيب فيدل يعرف غولي.

- لقد سافرت لبضعة أيام.. إنها غير سعيدة في هذه اللحظات.

- آه.. ولماذا؟

- حبيبها..

وشرعت تقصّ عليه ما حدث. أظهر الطبيب تعاطفه الشديد. وقال لها:

- لاتجزعي يا عزيزتي سيكون كل شيء على ما يرام.

عادت أستيرا من العيادة بحال أفضل ذلك أنها تيقنت بأن ميرا مجرد مزعجة.

حين حل يوم الأحد، ولم تعد غولييت.. قلقت استيرا كثيراً. فسينشيط السيد شلنجر غيظاً لو اتصلت به في الغد مطالبة بعطلة أخرى ولكن إن لم تعد غولي فستضطر إلى حمل الطفلة إلى العمل.

كانت الساعة تقارب الثالثة بعد الظهر حين سمعت أستيرا وقع خطوات ترتقي الدرج فسارعت لفتح الباب ولكنها وجدت روبيلا أمامها. قالت:

- آسفة.. هذه أنا.. ألم ترجع غولي؟

- يبدو أنها بحاجة إلى وقت أطول مما ظننت.

ودعت روبيلا بابتسامة إلى الدخول: «ذهب ڤيكتور ليزور أمه..»

أخرجت دمية قماش طرية من كيس ورقي:

- اشتريت هذه بالأمس.. ولم تتح لي فرصة الصعود إلى هنا حتى الآن.

عرفت أستيرا أن روبيلا المحرومة من الأطفال لم ترغب في أن يعرف ڤيكتور بالهدية، وقالت: «لقد نامت ميرا».

- لماذا؟ ألا تنام إلا حين يخرج من المنزل؟

تمتمت أستيرا: «أعرف أن صراخها يزعجه ولكنني واثقة أنها سرعان ما تنمو فلا تعود إلى الصراخ».

- أنا واثقة من هذا. لقد سمعته يقول شيئاً عن إخبار صاحب البيت بوجودها، وأنا آسفة إن اضطررت للتفتيش عن شقة أخرى.. لكن.. قاطعتها أستيرا متجهمة:

ـ وإن بقيت غولييت متوارية واجهت خطر التفتيش عن وظيفة جديدة، قبل التفتيش عن شقة جديدة.. ألديك وقت لفنجان شاي؟

قبلت روبيلا بحماس.

ـ لماذا تواجهين خطر التفتيش عن وظيفة جديدة؟

أثناء احتساء الشاي أخبرتها أستيرا كل شيء.. وأكدت أنها ستحتاج إلى فرصة أكيدة في الغد.. إذا لم تظهر غولي.. وتوصلت وهي تحادثها إلى الاستنتاج المنطقي الوحيد.

ـ سأبحث غداً عن حاضنة أطفال.

ـ لا يمكنك هذا..! لا يمكن ترك ميرا مع أي كان!

كانت أستيرا تكره الفكرة، ولكنها قالت:

ـ وماذا بيدي غير هذا الحل؟ يجب أن أعمل.

لم تذكر لها، أنها الآن على شفير الإفلاس أكثر مما مضى، فهي لم تشك يوماً في أن الأطفال عبء يمتص المصادر!

ـ حاضنة أطفال! الحاضنة القديرة تكلف ثروة هذه الأيام.

تأوهت أستيرا في نفسها لتوقع ذوبان قضمة ضخمة من راتبها الشهري، ولكنها وافقت روبيلا الرأي بأن شيئاً لن يفيدها مثل الحاضنة الماهرة. تنهدت وهي تضيف أسفاً:

ـ لولا إقامة أهلي في «الونغ كينغتون» لحملت ميرا إلى أمي التي تحب الأولاد.. لكن..

قاطعتها روبيلا:

ـ لكن أمك جارة أم غولييت.

ـ بالضبط.. وزوج أمها لن يتوقف عن الصراخ إن سمع بوجود ميرا.. أمي حبيبة.. لكنني أخشى أن يزل لسانها فتفضح أمر الطفلة، لذلك ليم أخبرها شيئاً.

ثم صاحت روبيلا مبتسمة:

ـ لدي فكرة. لماذا لا أعتني أنا بها؟

قالت أستيرا مذهولة: «أنت؟».

ـ لن آخذ منك شيئاً. أرجوك دعيني أعتني بها.

أخذت أستيرا بالفكرة وظنتها رائعة، حتى تذكرت زوج روبيلا فقالت: «وڤيكتور؟»

تلاشى النور من عيني روبيلا وصمتت. ثم نظرت إلى الأرض متمتمة:

ـ آه، شخص نافه!

فجأة، عاد إليها إشراقها:

ـ ڤيكتور يخرج قبلك إلى عمله، ويعود إلى المنزل بعدك.

شهقت أستيرا: «لن تجرؤي»

ـ قد تعود غولي غداً. ولن أخبره فقد لا يتعدى الأمر اليوم الواحد.

لكن اليوم الواحد امتد أسبوعاً ثم أسبوعين..

قضت أستيرا ليالي وهي تذرع الشقة ذهاباً وإياباً حاملة ميرا التي لم تكن تسكت إلا إذا حُملت ونتيجة هذا السهر كانت تعاني من مشاكل في العمل، وكلما طالت غيبة غولييت كلما ازدادت مشاكلها.

كان قد مضى على غياب غولي ثلاثة أسابيع حين حلّت النكبة. فقد سارعت أستيرا إلى المنزل تشكر الله على وجود روبيلا التي وفرت عليها أجرة حاضنة فميرا مع مضي الأيام تحتاج إلى أشياء كثيرة تجعلها عاجزة عن استئجار حاضنة.

وصلت أستيرا إلى الشارع الذي تعيش فيه ثم تسمرت في مكانها. إنها سيارة ڤيكتور! يا الله!.. وقع المحظور. لقد عاد إلى

المنزل باكراً! لم تكن أستيرا قد سألت روبيلا ما إذا كانت قد أخبرت زوجها عن عنايتها بميرا خلال النهار. وفيما هي تقترب من الباب الخارجي، عرفت أنه كان يجهل الأمر.

رفعت قامتها قبل أن تدخل إلى المبنى.. ولم تخدعها مشاعرها، فقد اكتشفت حين قرعت باب الشقة الأرضية أن ڤيكتور الذي يكاد يصاب بنوبة قلبية، قد فتح لها الباب بعنف، والأدهى من هذا، أن أستيرا شاهدت روبيلا الباكية تحمل ميرا بين ذراعيها. فعرفت أن زوج روبيلا لم يواجهها قط بهذه الطريقة العنيفة كما عرفت أن أول ما سيقدم عليه في الصباح هو إخطار صاحب المنزل.

همست روبيلا وهي تعطيها الطفلة: «أنا آسفة».

صاح ڤيكتور ووجهه يكاد يميز غضباً: «أنت آسفة؟»

حملت أستيرا الطفلة وتوجهت إلى شقتها.

وفي الصباح التالي اضطرت إلى الاتصال برئيسها طالبة منه ما تبقى لها من إجازات، فرد السيد شلنجر ساخطاً:

ـ لاحظت مؤخراً، أن تفكيرك لا يلازم عملك.. أترغبين حقاً في الاستمرار في العمل؟

ـ طبعاً، المشكلة أنني أواجه صعوبات في المنزل.

ـ فلنأمل إذن أن تحلي قريباً مشاكلك المنزلية.

فقدت أستيرا أعصابها حقاً.. لكن.. يا للرجال! وأعادت السماعة إلى مكانها وهي تلعن الرجال كلهم.. رئيسها بلحمه المترهل ونايغل نورتنغاتون لعدم اهتمامه بطفلته.. وكيرك فوكس، زوج أم غولييت المتوحش الذي جعل من المستحيل عليها، أو على غولييت طلب العون من عائلتيهما.

لم يكن هناك أثر للقدرة في نفس أستيرا في الصباح التالي،

حين اكتشفت أن المشاكل لا تأتي فرادى.. فقد حمل إليها ساعي البريد فاتورة الكهرباء الكبيرة التي لن تستطيع تسديدها. كانت معلوباتها مشتتة، فظلت مدة تحدق إلى الفاتورة وتتساءل عما إذا كان هناك غلطة ما.

اكتشفت فيما بعد، أن هذا الصيف كان رطباً ومن البديهي أن تغسل ثياب ميرا وغطاء السرير يومياً، وأن تجففها وتكويها وكان هذا ما سبب تراكم فاتورة الكهرباء.

ما إن حلَّ الليل حتى أصبحت أستيرا على شفير اليأس. كانت متأكدة أن ڤيكتور قد أبلغ المالك بوجود طفل في شقة الطابق الأول.. وبناء عليه تتوقع قريباً مذكرة إخلاء في بريد الغد.

جعلها تصلب ذراعها اليسرى تدرك أنها غرقت في أفكارها ساعات طويلة كانت خلالها الطفلة نائمة على ذراعها.

تمطت ميرا، ولكنها لم تستيقظ.. لكن ما استيقظ في الواقع، كان شيئاً ما داخل أستيرا.. فقد أحست بالغضب والثورة منذ يومين.. ولكنها الآن وهي تنظر إلى الجسد العاجز والمعتمد عليها، عاد غضبها إلى الاشتعال ولن تنطفىء جذوته حتى تتخذ قراراً إيجابياً.

إنها وغولي، تفكران بالطريقة نفسها والشيء المشترك بينهما هو الكبرياء التي حافظت عليها أستيرا عكس غولي التي انخفض مستوى كبريائها إلى حد ما.

ولأنها تعرف صديقتها نعم المعرفة علمت أن كرامة غولي لن تسمح لها بالاتصال بنايغل ثانية.. لكنه والد الطفلة وما جرى كاف لذا أقل ما قد تقوم به هو دفعه للقيام بواجب تربيتها.

منعها الخوف من إيقاظ ميرا من استخدام الهاتف حالاً وحين استيقظت شرعت تصرخ بإلحاح حتى نالت حظها من الطعام وحين

نامت أخيراً في مهدها.. كان الوقت متأخراً للاتصال بنايغل..

في الصباح التالي، اتصلت بنايغل ثورتنغاتون باكراً، ولكنها لم تتلق رداً. فذهبت ذلك اليوم مرتين إلى عنوانه تحمل ميرا، ولم تجده.. في المرة الثانية وضعت رسالة في صندوق بريده تطلب منه الاتصال بها للضرورة. ولكنه لم يتصل بها.

فتشت أستيرا في ذاكرتها علها تتذكر ما إذا كانت غولي قد أخبرتها بمكان عمله. تذكرت عدة أشياء عنه.. فبعدما طرده شقيقه بقسوة من مؤسسة «نورتنغاتون هولدنغ» اتخذ لنفسه عملاً خاصاً به ولكنه فشل فيه قبل أن ينطلق. والمؤسف أن أمه وقفت ضده لسبب ما.. ولأن زاكاري كان المفضل لدى أمه لم ينل الفرصة نفسها التي حظي بها أخوه.

أحست أنها بدأت تشعر بالأسف عليه، فقست قلبها.. فالإحساس بالأسف عليه لن يساعدها في تسديد فاتورة الكهرباء أو في تسديد مرتب حاضنة.

ازدادت ثورتها لدى استلامها رسالة من صاحب المنزل.. وتمتمت: شكراً لك ڤيكتور! ذكرتها الرسالة بشروط إيجارها، وطلبت بأدب أن تعلق على وجود الطفلة في الشقة.

في التاسعة اتصلت بشركة «دايتون دبزل» غير عابئة ما إذا كانت كذبتها ستطيح بعملها، قالت للسيد شلنجر إنها مصابة بالرشح، وتظاهرت بالسعال، ثم أقفلت الخط قبل أن يطلب منها تقريراً طبياً.

واستمرت المأساة أسبوعاً آخر، لقد آلمتها أصابعها لكثرة ما طلبت رقم هاتف نايغل وللأسف لم تتذكر اسم الشركة التي يعمل فيها.

فجأة، ارتفع ذقنها الجميل بقرار عنيد، إنها تعرف الآن

بالضبط ما عليها القيام به.. فالسعي وراء مساعدة عائلتها، أو عائلة غولي، أمر مستحيل.

لكن، ماذا عن عائلة نايغل..؟ ميرا فرد من أفراد عائلة نورتنغاتون. وعليهم المساعدة!

بعد دقيقتين ارتفع صوت من شركة نورتنغاتون هولدنغ يرد عليها.

- أود محادثة السيد نورتنغاتون، أرجوك.

- سأتصل به.

ازداد أمل أستيرا.. بعد قليل سمعت صوتاً مختلفاً:

- سكرتيرة السيد نورتنغاتون.

- صباح الخير.. أود محادثة السيد نورتنغاتون.

شعرت بأن الحديث مع رئيس وزراء روسيا أسهل بكثير من الحديث مع سكرتيرة زاكاري نورتنغاتون.. فاتصالها تلقى الصد.. وحتى عندما قالت إن الأمر شخصي تلقت صداً من السكرتيرة التي قالت:

- اتركي اسمك وعنوانك ورقم هاتفك، وسأبلغ السيد نورتنغاتون برغبتك في الاتصال به..

بعد نصف ساعة من الجلوس بانتظار رنين الهاتف، بدأت تؤمن أن زاكاري نورتنغاتون لن يتصل، وبدأت تحس بتصاعد الغضب بسبب معاملتها وكأنها واحدة من صف طويل من النساء اللاتي يتصلن به تحت ذريعة «مسألة شخصية ملحة وعاجلة»... وبعد ساعة وصل غضبها إلى ذروته.

في الثانية عشرة والنصف، دخلت إلى مكاتب «نورتنغاتون هولدنغ» الضخمة وهي تحمل بين ذراعيها ميرا. وجدت عاملتي استقبال في الخدمة.. كلتاهما مشغولتان بالرد على المخابرات..

فتقدمت أستيرا بخفة إلى المصعد. . وما إن خرجت منه إلى الطابق الخامس، حتى تبنت نظرة ضياع، وخاطبت أول من قابلها.

ـ هلا أرشدتني إلى مكتب السيد نورتنغاتون. . لكن. .

ردت السيدة الرمادية الشعر:

ـ اقصدي الطابق الأخير.

شكرتها أستيرا، وعادت إلى المصعد ولكنها لم تجد أحداً في الطابق العلوي. فتحت أحد الأبواب وأطلت برأسها، لتسأل الموجود هناك.

ـ مكتب السيد نورتنغاتون أرجوك؟

ـ آخر باب إلى اليمين.

ابتسمت له: «شكراً لك».

لم يكشف الباب الأخير يميناً عن الشخص الذي أملت رؤيته، بل عن أنثى جميلة سألتها: «الآنسة إيفوري؟»

نظرت الآنسة إيفوري بقلق إلى الطفلة: «بِمَ أخدمك؟»

لم تستطع أستيرا الرد، فالصغيرة التي لم تعتد على تلقي نظرة متجهمة من أحد قررت أن تبلغ العالم كله بوجودها.

صاحت الآنسة إيفوري، فوق الصوت الحاد:

ـ يا إلهي! كيف لمخلوق صغير كهذا أن يصدر هذا الصوت؟

ردت أستيرا: «لقد تمرنت كثيراً».

أحنت رأسها لتهدىء من روع الطفلة ولكن صرير باب الغرفة الذي انفتح بقوة، جعلها ترفع رأسها مجدداً.

دخل رجل متوتر الأعصاب، ثم توقف لدى رؤيته أستيرا والطفلة ليسأل: «ماذا يجري هنا؟»

عندما سمعت ميرا صوتاً أعلى من صوتها توقفت عن الصراخ

بصوت نوان، علمت خلالها أستيرا أن هذا هو الرجل الذي جاءت لرؤيته. مع أنه كان نقيض نايغل، فهو طويل بينما نايغل قصير، وهو أسود الشعر رمادي العينين بينما نايغل أشقر الشعر أزرق العينين ولعل الفرق الكبير بينهما، أن فم نايغل يحمل آثار الضعف بينما لا أثر للضعف على ملامح هذا الرجل الحازم.

فجأة، أدركت أنه ينتظر رداً على سؤاله «ماذا يجري؟». . ووجدت أستيرا أنها كانت غبية في إنفاق ما بقي لديها من مال أجرة ركوب التاكسي. . كان حري بها إدّخار مالها وجهدها لأنها لن تتلقى المساعدة من زاكاري نورتنغاتون.

لقد عرفت هذا قبل أن تبدأ.

• • •

٢ ـ لا يحتمل الرفض

سأل زاكاري نورتنغاتون بحدة بعدما عادت ميرا إلى البكاء، بنبرة أعلى: «حسناً؟»

كانت أستيرا قد حضرت ما تقوله، ولكن صوت ميرا الذي شغلها قليلاً عن ذلك جعلها تقول كلمات لم تكن قد قررت البدء بها:

ـ ظننت أن الوقت قد حان لتتعرف إلى ابنة أخيك.

ـ ابنة.. أخي؟

جعلها ذهوله تدرك أن نايغل لم يذكر شيئاً عن علاقته بغوليت، فأردفت:

ـ ألست السيد زاكاري نورتنغاتون شقيق نايغل؟

عندما لم تتلق منه سوى انحناءة رأس رداً على سؤالها ازدادت كراهيتها له فقالت شامخة الرأس:

ـ إذن اسمح لي أن أقدم لك ابنة أخيك.. ميرا ڤالنتينا..

ولم تردف لأنه سألها مقاطعاً وإن بذهول:

ـ ڤالنتينا؟ يستحسن أن تدخلي إلى مكتبي.

لحقت به ولكنه عندما وصل أمام الباب التفت بسرعة قائلاً:

ـ آنسة إيفوري.. تسلمي مسؤولية.. هذه!

وأكمل المسير.

شعرت أستيرا بسخط شديد لأنه نادى الصغيرة بـ «هذه» وقررت أن تحمل ميرا معها أثناء نقاشهما ولكن سرعان ما عاد التعقل إليها فقد بدا لها زاكاري نورتنغاتون رجلاً نافذاً يتوتر بسرعة ولا بدّ أن تتحول المقابلة من سيء إلى أسوأ إن اضطرا إلى الصراخ فوق صراخ ميرا طوال الوقت. فالتفتت معتذرة ووضعت الطفلة بين يدي الآنسة إيفوري التي أصبحت فجأة خائفة:

ـ تحب أن يتمشى بها المرء جيئة وذهاباً.

كان زاكاري نورتنغاتون ينتظرها بفارغ الصبر. لاحظت نظرة الشرّ في عينيه وهو يجذب لها كرسياً. جاهدت للبقاء هادئة، فجلست علّها تسترد رباط جأشها، أما هو فتوجه إلى مكتبه الذي شكل حاجزاً بينهما. همت بفتح فمها ولكنه سبقها إلى الكلام:

ـ لم أكن أعرف أن أخي اتخذ زوجة.

ـ فلأشرح الأمر. إنه..

قاطعها بازدراء، وقد فسّر كلامها كما يريد.

ـ يبدو أنه عرفك معرفة وطيدة.

تصاعدت كراهيتها أكثر فأكثر وأرادت أن تخبره في تلك اللحظة بأن الطفلة ليس طفلتها. ولكن هذه النية ضاعت لسبب ما.

وسألت: «أبسبب الطفلة؟».

لم تفكر في هذا من قبل، ولكنها أدركت فجأة أن زاكاري نورتنغاتون رغم قسوته قد يطالب بالمزيد من البراهين ليتأكد من أن الطفلة ابنة أخيه.

ـ أعني بسبب اسم الطفلة الثاني.. ڤالنتينا هو اسم أمي الأوسط.. وهذا اسم لسبب من الأسباب لا يذاع أبداً، مع أنه يطلق دوماً كاسم وسط لكل مولودة أنثى.. وهذا يعني أن علاقتك بأخي كانت مقربة.

ـ آه..

فهمت أستيرا سبب إصرار غولي على أن يرافق اسم الصغيرة اسم ڤالنتينا. وتابع زاكاري نورتنغاتون، الرجل المشغول بوضوح:

ـ إذن، بعد توضيح هذا الأمر.. نعود إلى سبب زيارتك.

اخترقتها عيناه الرماديتان من جديد فشعرت بأنه يظنها جاءت تطلب الإحسان. فابتلعت ريقها بصعوبة، مبتلعة معه كبرياءها. لو كانت تفكر في نفسها فقط لهبت واقفة وغادرت، ولكنها لن تستطيع ذلك بسبب الطفلة، فقالت بمقدار ما وجدت في نفسها من هدوء:

ـ أحاول تلقي أثر لأخيك.

ظهر عبوس أسود على وجهه، وسأل بحدة:

ـ وهل هجرك؟

ـ لم يهجرني أنا بل هجر صديقتي.

ـ صديقتك؟ أي فوضى أوقع نفسه فيه هذه المرة؟ يا رباه! أتقولين إنه عاشر كما في وقت واحد؟

ردت بحرارة: «لا أقول ذلك».

سكتت، تحاول لملمة شتات تفكيرها ثم قالت بهدوء:

ـ اسمي أستيرا موفيت، وأنا أقطن في شقة مع صديقة عزيزة اسمها غولييت غامبل. نشأت علاقة بين غولي وبين نايغل في السر، ولكنه حين عرف بأن الطفلة قادمة أنكر علاقته بها.

ـ وهل هرب حين عرف أنه سيصبح أباً؟

كان سؤاله صادماً، فأجابته بهدوء:

ـ ليس عقب ذلك مباشرة.

مرت نظرة فولاذية في عيني الرجل الرماديتين وقال ببرود:

ـ ولماذا أنت هنا عوضاً عنها؟

قاومت اندفاعاً للرحيل:

ـ صديقتي.. غولي غير موجودة هنا لأنها رحلت.

ـ رحلت بدون طفلتها؟

كان في سؤاله الكثير من التشكيك، ولأول مرة في حياتها رغبت أستيرا في ضرب رجل.

ـ تركت غولي الطفلة مع جارتنا حتى أصل من العمل بعدما أنكرها نايغل.

أخبرتها نظرة جامدة في عينيه أنه يفكر في ما قالته وأنه، كأخيه الذي أنكر ابنته، على وشك أن ينكر أنه عمها.. وسأل: «وهل قال إنه ليس الأب؟».

قالت بغضب مباغت:

ـ ولكنه الأب.. لقد طلب منها الإجهاض ثم هددها بالتخلي عنها إن لم تجهض وظنته سيغير رأيه حين يشاهد الطفلة ولكنها بدأت تفقد أثره ولم يليث أن تخلى عنها وهي حامل. وبعدما أنجبت الطفلة اتصلت به لتسجل الفتاة باسم أبيها، فرفض القبول بها، عندها تكدرت ورحلت.

جلست تحدق إليه فرأت أن زاكاري نورتنغاتون لم يتأثر إطلاقاً.

ـ إذن.. اسم من تحمل الطفلة؟

صاحت أستيرا: «نورتنغاتون.. لقد سجلت باسم ميرا ڤالنتينا نورتنغاتون وهذا حقها!»

هز الرجل القاسي العينين رأسه، ولم تعرف ما إذا كانت هذه الإشارة موافقة أم رفضاً.. لكنها غضبت بشدة حين أعطاها انطباعاً بأن غولييت كانت تحلم لصالح «قصتها» وقال:

- إذن.. أخي أب لطفلة وحبيب لأم هجرها. وأم هذه الطفلة تهجرها في ما بعد. وبواسطة جارة، تدرك الطفلة «الصديقة».. أعترف يا آنسة موفيت أنني ما زلت في ظلام دامس، فماذا تتوقعين مني؟ ولكن أخبريني.. ألديك أطفال غيرها لتعتنين بهم حين يهجرهم آباؤهم أو..

ردت بغيظ:

- أنا لا أفعل هذا، وليس لدي أولاد سواها. فأنا موظفة في شركة هندسية وآمل أن أظلّ فيها هذا إن لم يكن رئيسي قد صرفني بسبب غيابي المتكرر الذي سببه عنايتي بميرا. أما ما أتوقعه منك فقد أوضحته جيداً.. اعلم أنه بسبب لحمك ودمك هذه التي في الخارج أجدني غير قادرة على تسديد فاتورة الكهرباء وبسببها ستنقطع الكهرباء عن شقتي..

هبت واقفة فهبَّ معها زاكاري نورتنغاتون، لينظر إليها بحدة.. فهمت من نظرته أنه يريد أن يظهر لها ضيقه بمقابلتها فتابعت ساخطة:

- أضف إلى هذا أنه محظر عليَّ في الشقة إيواء الأطفال وبسبب إيوائي طفلتكم وجدت نفسي مهددة بإخلاء منزلي.

قاطعها ساخراً:

- وقد تأخرت عن دفع الإيجار دون شك.

- لم أتأخر حتى الآن وإن استمرت ابنة أخيك تنمو على هذا المنوال فسأحتاج إلى شراء ثياب جديدة لها.

- وهذا بيت القصيد؟ المال!

سرعان ما برزت كرامتها إلى موقع الدفاع:

- لن ألمس قرشاً من مالك!

تقدم بعداء نحو المكتب ليقترب منها، وقال متكبراً، متحدياً:

- لن تلمسي منه الكثير. ترى ألم تجدي في هذه المسألة ضمانة تضمن لك نفقاتك طوال حياتك؟

صاحت بحرارة: «ما الطفلة بطفلتي».

ولكن معنى كلامه الفظيع لم يتناه إلى تفكيرها جيداً وعندما وعت جيداً ما قاله تركت لغضبها العنان.

- أيها الخنزير القذر الشرير التفكير..

ثم ارتفعت يدها اليمنى في الهواء بحدة لتصفع وجه زاكاري نورتنغاتون، بضربة قوية كادت تكسر معصمها.

ارتج رأسه إلى الوراء قبل أن ينظر إليها نظرة حقد وضغينة جعلت أستيرا تدرك أن من الأفضل لها الرحيل.. وخشية أن يتقدم منها بخطوة شرسة ليذيقها من الدواء المر ذاته حثّت الخطى وغادرت المكتب، ثم خطفت ميرا من الآنسة إيفوري.

ما إن حل الصباح التالي حتى كان الندم الذي شعرت به بالأمس بسبب الصفعة التي وجهتها إلى زاكاري نورتنغاتون قد زال وفي الواقع إن ما ندمت عليه هو عدم محاولتها إيجاد مكان نايغل قبل أن تفعل ما فعلت.

تمنت وهي مثقلة بالهموم لو بقيت في منزل أهلها المريح الخالي من المشاكل.. بعد لحظة خجلت من أفكارها.. فكما قالت لغولييت، لماذا الأصدقاء. ستكون صديقة متقلبة المزاج لو بدأت تندم أمام الصعوبات.

تجاهلت صوتاً صغيراً في عقلها الباطني صاح بها بأن كلمة «صعوبات» هي تبخيس قذر للمحنة التي تمر بها.. فمنذ قررت غولي الهرب من عذاب زوج أمها الذل، صمّمت أستيرا على مرافقتها في رحلتها..

لم تكن حياة غولييت سهلة، فقد أدرك كيرك فوكس، أنه

سيخسر «كبش المحرقة» حين تذهب. . فأصبح أكثر عدائية لها في الأسبوع السابق على رحيلها وكانت تبكي حين أفضت لصديقتها كيف يكرر لساعات أنها لن تنجح، وأن الأمر سينتهي بها إلى حياة متحلة. . وأكدت لها أستيرا التي راعها حالها قائلة: «ستربهم جميعاً». يومذاك اتفقنا على الذهاب إلى لندن، لاستئجار شقة لا يدخلها رجل ثم اتفقنا على العمل لتحقيق مستقبل زاهر.

نجحت بعض مخططاتهما، وجدنا شقة ولم يدخلها رجل.

أما بالنسبة للمستقبل العملي الزاهر، فقد وجدنا أن العيش في لندن يتطلب نفقات كثيرة ولهذا لم تستطيعا انتظار العمل المناسب. فالوظيفة الأولى التي عرضت عليهما قبلتاها أما نوع الوظيفة فعاملة في قسم الطباعة وكان عملاً مرهقاً. . لكن حاجتهما إلى العمل جعلتهما تبقيان فيها مدة سنتين ثم بعد ذلك ترقتا إلى درجة سكرتيرة.

بعد سنتين تقريباً التقت غوليت بنايغل تورتنغاتون، ووقعت في حبه رأساً على عقب. وقتذاك انحلّ اتفاقهما المتعلق بالرجال.

مساء يوم أحد، عادت أستيرا من زيارة لأهلها، فاستقبلتها غولي التي صارحتها:

ـ لقد بات نايغل هنا ليلة أمس. . وأتمنى لو أستطيع القول إنني آسفة ولكنني غير آسفة. لقد طلب مني نايغل الرحيل معه في نهاية الأسبوع القادم، أحبه كثيراً أستيرا، ولا يهمني أحد سواه. . ويجب أن أرحل معه. .

ردت أستيرا بهدوء، وهي التي لا تعرف معنى الحب.

ـ طبعاً حبيبتي. . ارحلي معه.

ـ أشكر لك تفهمك.

ابتسمت، وبقيت تبتسم، وازدادت ازدهاراً، منذ تلك

اللحظة. . ثم حملت في أحشائها جنيناً.

انتشلت أستيرا نفسها من ذكرياتها، ولكنها أحست بالحزن لأن الحب الذي أسعد غولي يوماً، قد انتهى بكارثة. وهذا أمر غير عادل، فقد مرت غولي بعذاب بائس في منزلها، وهي لم تؤذ روحاً في حياتها. . هذا غير عادل!

كانت مشاعرها وأحاسيسها كلها مع غوليت، فقد تذكرت كيف اتهم زاكاري نورتنغاتون غولي بتعمد الحمل لتؤمن لنفسها تذكرة مجانية للحياة. . يا له من رجل خنزير قذر! اجتاحتها موجة غضب، بحيث لو ظهر لها زاكاري نورتنغاتون من جديد لضربته.

كانت قد وضعت ميرا في المهد حين سمعت طرقاً غير متوقع على الباب. . أدركت أن الطارق ليس روبيلا فكتور في المنزل. . ماذا لو كان الطارق هو صاحب المنزل. . ولكن، هل يأتي شخصياً لتلقي الرد على رسالته؟

يا للكارثة! نظرت أستيرا إلى غرفة الجلوس وانكمشت فالدلائل كلها تشير إلى وجود طفلة في المنزل.

وعاد الطرق إنما هذه المرة بطرقات أعنف، وخوفاً من أن يوقظ الطرق ميرا هرعت إلى الباب تفتحه.

شقت الباب قليلاً فغمرتها راحة عارمة لأن الطارق لم يكن صاحب المنزل. . ولكن سرعان ما حل الغضب محل الراحة. . فالرجل الطويل ذو البزة القاتمة الواقف في الباب عابساً، ذكرها بما حدث بالأمس. شقت الباب أكثر وقالت بحدة:

ـ إلى من أدين بهذه السعادة المشؤومة؟

نظر إليها زاكاري نورتنغاتون بعداء. . فعلمت من تعابير وجهه أنه على وشك أن يصبح ساخطاً: تباً لك! ثم يرحل. ولكنها فوجئت بأنه لم يفعل. . بل قال باختصار: «يجب أن نتحدث».

حين لم تظهر ميلاً لدعوته إلى الداخل سألها:

- أتودين حمل كرسي إلى الخارج، هنا؟

كادت تقول له إنها سمعت ما يكفي من كلامه ولكن ڤيكتور هانت، خرج من شقته ونظر إليهما، فوجدت نفسها تدعوه بدون لباقة.

- ادخل.. إذا كان لا بد من دخولك.

ولكن حالما أصبح في الداخل شعرت بالخطر ولعل السبب منظر الشقة غير المرتبة.

- لحظة من فضلك. أريد إلقاء نظرة على ميرا.

تركته في غرفة الجلوس ثم قصدت الطفلة غير أنها فوجئت به يلحق بها. تسمّرت في مكانها حين مد يده بلطف لا مثيل له ليتأمل إصبعي قدم ميرا الثاني والثالث الملتصقين.

ذهلت أستيرا لأن هذا الرجل الضخم العريض المنكبين يملك هذا اللطف والغريب أن ميرا لم تتحرك.. وتابعت أستيرا النظر إليه.. لتسمعه يتمتم:

- لقد ورثت أصابع قدم شالفونت.

وترك قدم ميرا الصغيرة ثم استوى واقفاً فسألت: «شالفونت؟».

- إنها عائلة أمي. ألم يخبرك أخي هذا حين أسرّ لك اسم ڤالنتينا؟

قاطعته بلهجة حادة:

- إلى غوليت أسرّ ذلك لا إليّ أنا.

أزعجت نبرة صوتها ميرا فتذمرت في منامها.. فنظرت إليه أستيرا نظرة تقول: والآن أنظر ماذا فعلت.. فهم الإشارة، وخرج لينتظر في الغرفة الأخرى.

من حسن الحظ أن ميرا غطت من جديد في النوم ولكن أستيرا رغم ذلك ظلت معها دقائق أخرى، ثم عادت إلى غرفة الجلوس، حيث قفزت إلى ساحة المعركة:

- كنت أفضل لو رددت على مكالمتي الهاتفية صباح الأمس، عوضاً عن مجيئك إلى منزلي بنفسك. أعتقد أن سكرتيرتك هي من زودتك بالعنوان أم أن نابغل كان الفاعل؟

قاطعها: «مضى زمن طويل منذ أن رأيت أخي»

وهذا أمر معقول.. فمن يهدم مستقبل أخيه بقسوة لن يجد في قلبه من العاطفة ما يدفعه إلى معرفة مكان أخيه.

اندفعت تسأل لئلا تقع في الغلطة نفسها، حين تركت نورتنغاتون هولدنغ بدون أية معلومات:

- ولكنك تعرف أين يعمل؟ وكما قلت لك، أحاول تقفي أثره، اتصلت بشقته، وزرتها، ولم أجده. لذلك إن أعلمتني بمكان عمله أستطيع..

قاطعها زاكاري: «معلوماتي تقول إنه لا يعمل».

- لا يعمل؟

أحست أنها هزمت ولكنها سارعت تجمع شجاعتها وقالت: «حسناً، شكراً لزيارتك».

كانت في منتصف الطريق إلى الباب، حين أوقفها:

- هل أنت حادة الطباع دائماً؟

استدارت لتقول بدهشة: «أنا؟».

إن حدّة الطباع والتهور هما آخر ما يمكن نعتها بهما. نعم هي دائمة القلق ولكنها أبداً ليست حادة الطباع.

- أجل.. أنت.. قلت لك إننا يجب أن نتباحث أمراً.

- وما الذي يدفعك إلى محادثتي؟ بالأمس أبديت عدم

الاهتمام بما قلته لك.

- بالأمس ضربتني بعنف.. وبسبب غضبي لم أستطع الكلام.. ولم أكن أعرف أن أنثى نحيلة، صغيرة الجسم مثلك قد تطلق مثل هذه الضربة العنيفة..!

لولا ذكاء أستيرا لخالته يمازحها.. صاحت به:

- كنت تستحقها. فغولي ألطف وأفضل شخص أعرفه.. كانت تريد الاحتفاظ بجنينها لأنها تحب نايغل، ولم تفكر قط في ما ألمحت إليه.. فأنا أعرفها. وقد عرفتها طوال حياتي.

- وغولييت هذه أهي موجودة فعلاً؟

- طبعاً موجودة.

- والطفلة.. أهي طفلتها؟

- إنها طفلة غولييت ونايغل.

- لا مجال للشك في أنه أب الطفلة.. ولكن.. أنت.. صديقتك..

أحست أستيرا أنه لا يصدق حتى الآن أن غولييت موجودة فتذكرت شيئاً.. تركته بدون أن تقول شيئاً ثم دخلت إلى غرفة النوم لتعود منها بصورة لصديقتها.

تأمل صورة غولييت ونايغل فبانت له سعادتهما الواضحة للعيان.

- أهذه غولييت؟

هزت رأسها إيجاباً، فتابع:

- هل شاهدته، أو اتصلت به منذ ولادة الطفلة؟

- تحدثنا هاتفياً ليس إلا.

- وهذا يعني، أنها لم تتلق منه مالاً للإعالة؟

- لا يمكن لغولي أن تطلب منه المال.. أعرف هذا. كما

أعرف أنني أخالف إرادتها بمحاولتي الاتصال به، غير أنني لا أستطيع الانتظار حتى عودتها فمساكلي كثيرة.

وافقها زاكاري، على الشيء الوحيد المتفقين عليه.

- إنها ورطة.. اسمعي سأسدد كل الفواتير غير المدفوعة فهل..

أحست أستيرا بحرارة تجتاحها، وسألته بشموخ:

- ولماذا تسدد فواتيري؟ عندما رأيتك البارحة لم تكن تريد أن تعرف..

- عندما رأيتك البارحة ذكرتني بأن الطفلة من لحمي ودمي. نعم لم تعجبني الظروف ولكنني لا أستطيع أن أدير ظهري إلى الواقع الراهن.

دهشت أستيرا، هذا أقل ما يقال، واتسعت عيناها.

تمتم.. وهو ينظر إلى عينيها اللتين تبدوان زرقاوين قاتمتين.

- لون لا يصدق!

فجأة أردف وكأنه ندم على ملاحظته الأخيرة:

- يجب أن تتخلي عن عملك بالطبع.. إن..

قاطعته مذهولة: «أتخلى عن عملي؟».

سألها بقسوة: «أيعني لك العمل الكثير؟».

جعلها صدقها تقول:

- ليس كثيراً، كما هو الحال في وظيفة السكرتاريا.. أعتقد أنه يدير لي عجلة الحياة بعدل.. وفي الواقع أنا بحاجة إلى عملي وماذا أفعل حين تعود غولييت؟

- أفهم من كلامك أنك لا تعرفين متى تعود وقد سبق أن أخبرتني أنك عرضة للطرد من العمل بسبب غيابك المتكرر. يجب أن تعترفي، أنك لن تستطيعي الاستمرار بالعمل، والعناية بالطفلة

في آن واحد.

ـ هذا واضح.. ولكن ألم تسمع شيئاً عن الحاضنة؟

ـ حاضنة!

اعتلت وجهه تقطيبة شديدة فعرفت أنه لا يريد أن يسلّم أمر ابنة أخيه إلى غريبة. الواقع أن الفكرة لا تعجبها أيضاً، فقالت له بدون أن تعني كلمة مما تقول:

ـ إن لم تعجبك الفكرة اعتن أنت بميرا أثناء غيابي.

صاح بذهول: «يا الله! أحقاً تقترحين أن أجلس في البيت مع طفلة؟»

غضبت أستيرا منه لأنه لا يحمل موضوع الطفلة على محمل الجد.

قالت له بحدة: «لن أترك في عهدتك ضفدعة مدللة.. لماذا لا تقوم بدورك في العناية بها؟»

أطلق عليها زاكاري نورتنغاتون نظرة عداء.. ثم التفت ينظر إلى الغرفة غير المرتبة، وقال ببرود:

ـ أعترف أن شقتي كبيرة. ولكنها رفيعة المستوى وهي مناسبة لتربية طفلة صغيرة وليس كحال هذا الجحر المكعب.

أحست أستيرا بالإهانة:

ـ شكراً لك! وما كنا لنحصل على هذا الجحر المربع لو نفذ المالك تهديده.

ـ وهل بلغك منه شيء؟

هزت رأسها: «إنه ينتظر رداً على سؤاله: ألديك طفل في الشقة؟ لو لم تكن أمي جارة أم غولي لحصلت على فرصة للتنفس، أخدع بها مالك المنزل، ولا أضطر إلى استخدام حاضنة».

ـ أتقترحين حمل الطفلة إلى أمك؟

ـ هذا ما لا أقترحه أبداً.

ووجدت نفسها تسرد عليه قصة غولي مع زوج أمها.

ـ بسبب البؤس الذي سببه لأمها، قررت غولييت ألا تخبرها شيئاً عن حفيدتها.. لهذا لا أستطيع وضع الطفلة في عهدة أمي.

ـ وأمك. هل ستعرف أن الطفلة ليست طفلتك؟

صاحت بذهول:

ـ لا أستطيع الكذب عليها في أمر كهذا! خاصة وأن والدتي لم يجدا تغييراً ولا طفيفاً في جسدي. لكن على أي حال.. أليس لديك أية فكرة عن الفرح الغامر الذي تختبره الأم عندما يزرق أحد أبنائها بالحفيد الأول؟ فكيف أرتكب فعلاً قذراً يإيهامي لها أن ميرا ابنتي؟

جعلتها إشراقة عينيه تدرك أنها أعطته مادة للتفكير. فجأة، قال جاداً:

ـ هل أنت واثقة من أن الجدة تستقبل الحفيد الأول بحفاوة؟

ـ قطعاً. ولكنني لن أضع الطفلة في عهدة أمي، إلا إذا ادعيت أنها ابنتي.

مرت لحظات صمت ثقيلة أسرتها في أثنائها شرارات عينيه المتطايرة، لم يقل زاكاري نورتنغاتون كلمة واحدة ثم قال بوضوح شديد:

ـ أنا لا أطالبك بوضعها في عهدة جدة زائفة بل في عهدة الجدة الحقيقية.

اتسعت عينا أستيرا وحدقت إليه مذعورة.. ثم قالت وهي تستعيد روعها:

ـ لا مجال. ستجن غولييت لو وضعت الطفلة في عهدة أمها.
قال زاكاري بصوت لا يتحمل الرفض:
ـ ولهذا، لن تأخذها إلى هناك. ما أقترحه أن تحمل الطفلة إلى جدتها لأبيها في بورك.

* * *

٣ ـ الخدعة البيضاء

هل وافقت حقاً على اقتراح الرجل المستحيل؟ فيما هي مشغولة بالعمل المنزلي صباح الأربعاء، وجدت أن موافقتها على اصطحاب ميرا إلى بورك، أمر لا يصدق!

هل وافقت فعلاً ليلة أمس، على حضور زاكاري نورتنغاتون صباح السبت لاصطحابها إلى منزل أمه؟

كانت قد صاحت به غاضبة:

ـ رويدك، رويدك! أنا لست متأكدة من رغبتي في انتقال ميرا للعيش مع جدتها.

جعلتها نظرته المتعجرفة ترى أنها تحاول إتعابه لمجرد التعب.. كان فظاً وهو يقول لها:

ـ لقد رضيت بواقع اضطرارك للعمل، ولكن ما لن أرضى به هو أن تُدفع الطفلة إلى حاضنة.. أنا مستعد لدفع المصاريف اللازمة كلها باستثناء أجر حاضنة. لماذا الحاضنة وهناك جدة ستجد السعادة لدى رؤية حفيدتها. أليس هذا قولك؟

ـ ولكنني لم أكن أعني..

قاطعها بحدة وكأنها لم تقل شيئاً:

ـ لو كانت ظروف الحياة في منزل أهل صديقتك مؤاتية لحملت عن طيب خاطر الطفلة إلى أمك، أو إلى جدتها لأمها.

فما الفرق الآن؟ وماذا إن اعتنت أمي بالطفلة؟

كرهت أستيرا منطق هذا الرجل السليم وقالت تجادله: «ولكنني لا أعرف إن كانت غولي ترغب في أن تعرف والدة نابغل عن وجود الطفلة».

ـ لقد حدّث غوليت من خباراتها يوم تركتها ورحلت..

ـ لقد أخبرتك السبب.. كانت معاملة أخيك السيئة لها السبب.. ما الفائدة؟ أنت بلا رحمة مثله تماماً؟

هز كتفيه: «اسمعي أنت بحاجة إلى مساعدة وأنا قادر على تقديم هذه المساعدة».

ـ هذا إن نفذت لك ما تريد!

لم يتنازل ليرد. غير إنها عرفت أنه هو المسيطر على الأمور، فأرادت أن تقول له انها تستطيع تدبر الأمر وحدها ولكنها سرعان ما واجهت الحقيقة.. لن تستطيع هذا بدون معونة أحد.. وهو حتى الآن الوحيد الذي حمل إليها مشروعاً قد يؤمن لها العودة إلى عملها صباح الاثنين.

ـ ماذا إن رفضت أمك ميرا؟

ـ إنها الحفيدة الأولى.

جعلتها كلماته تندم على ما قالته عن سعادة الجدات بالأحفاد. وقالت متلعثمة:

ـ أجل.. إنما.. ليس من المناسب اصطحاب الطفلة إلى منزل والدتك أعني أن الأطفال مرهقون بالنسبة لامرأة في الستين من عمرها.

ـ أمي في الخامسة والستين كما أن في المنزل خدماً ومن بينهم المرأة التي اعتنت بي وبأخي في طفولتنا وهذه المرأة ترملت في السنة الماضية وعادت إلى وظيفتها. وأؤكد لك، أن سوزي

سومرز ستكون سعيدة بالاعتناء بالطفلة.

يا للحظ السعيد. لقد كان أثناء محاولتها استعادة وعيها يجمع ويحسب كل شيء! ولم يترك لها سوى الموافقة! ومع ذلك قالت بإصرار: «لن نأخذ ميرا مني».

رد وآثار المرح تتراقص على فمه:

ـ أنا مسرور لهذا.. أعترف أنني أخاف الأطفال.

تخيلت زاكاري نورتنغاتون يفقد أعصابه أثناء القيادة بسبب صراخ ميرا وهذا ما دفع أستيرا إلى اختلاق عذر لرفض مرافقته.. فأكملت:

ـ ولن أتركها مع أمك.. إن أحـــت أن هناك من خطب.

انتزع زاكاري الريح من قلوعها:

ـ ولهذا أقترح عليك قضاء عطلة الأسبوع في «البيغ هاوس».

البيغ هاوس، هو اسم منزل والدته..

ـ سأمر لاصطحابك يوم السبت، فكوني على أتم الاستعداد في العاشرة؟

أحست بانقطاع أنفاسها بسبب السرعة التي يدفعها فيها للقبول.. فصاحت:

ـ لا.. لن أستطيع! يجب أن أطعم ميرا وأغسلها وعملي هذا لن ينتهي قبل الحادية عشرة.

ـ سأحضر في الحادية عشرة إذن.

في تلك اللحظة أدركت أنها وافقت على الذهاب معه. ولكن بما أن خباراتها كانت قليلة اضطرت إلى أن تسأله قبل أن يذهب:

ـ تفهم، سيد نورتنغاتون.. أن هذا الترتيب قد لا يدوم سوى أيام.. وعدت غولي بالمحافظة على ميرا التي ستحتاج إليها حين تعود.

حدق زاكاري نورتنغاتون إلى زرقة عينيها العميقة بدون تعليق.. ثم التوى فمه بأثر ابتسامة وقال بهدوء:

ـ أفهم.. والآن إن أعطيتني الفواتير غير المدفوعة فسأخرج.

فيما بعد، فكرت أستيرا أن تلك الابتسامة التي اعتلت وجه الرجل القاسي، هي المسؤولة عن نسيانها وعدها بألا تلمس قرشاً من ماله. وردت:

ـ ثمة فاتورة واحدة. ويؤسفني ضخامة المبلغ ولكن صعوبة الطقس وغسيل ميرا، وتجفيفه، والمحافظة على حرارة الشقة..

قاطعها وهو يدس الفاتورة في محفظته ويخرج في الوقت نفسه بطاقته:

ـ يجب ألا تلتقط الصغيرة البرد.. إن احتجت إلى أي شيء اتصلي بي خارج دوام المكتب.. أراك يوم السبت آنسة موفيت.

اعترفت أستيرا وهي تخلد إلى الفراش أن زاكاري حرّك فيها ميلاً إلى الجدال.. فكيف استطاع إقناعها بتسليمه فاتورة الكهرباء بدون أن تنبس ببنت شفة. تذكرت تلك البسمة التي اعتلت شفتيه والثواني الخمس التي كانت فيها مشوشة الفكر مشدوهة: أهي ابتسامته التي انتزعت منها مقاومتها؟

كانت حتى حلول يوم السبت قد أمضت وقتاً طويلاً تحاول فيها إمعان النظر في منطق زاكاري.. وصل في تمام الحادية عشرة وكانت قد رتبت كل الحاجيات الضرورية وحددت الأولويات فإن كانت ترغب في الاحتفاظ بوظيفتها فعليها أن تكون في المكتب صباح الاثنين. الأولوية الأولى إذن، أن تتأكد من الاعتناء بميرا أثناء غيابها، على يد راشد مسؤول ومهتم.. ومن سيكون هناك أشد اهتماماً وأكثر تحملاً للمسؤولية من جدتها؟

قال زاكاري وهو يشاهد جبل الحقائب الذي سيرافقهما.

ـ ألم يكن من المستحسن الاتصال بوكالة شحن؟

التوت شفتا أستيرا ولكنها كبحت ابتسامتها:

ـ تحب ابنة أخيك أن تبدل ثيابها عدة مرات في اليوم.

كانت تنتظره وبين يديها ميرا حين عاد من إيداع آخر الحقائب في مؤخرة السيارة، بما فيها حقيبة أستيرا نفسها..

ـ سأحكم إقفال أبواب شقتي.

ولأنها تذكرت اعترافه بالخوف من الأطفال دهشت حين تمتم متجهماً:

ـ سأحمل الصغيرة إلى السيارة.

ناولته الطفلة: «احملها هكذا».

لم تتوقع أن يسمعها، ولكنها أجفلت حين قال:

ـ اصمتي.. آنسة موفيت.

ونزل السلم.

سرّت أستيرا أنه لم يرَ ابتسامتها على ثغرها. حين انضمت إليه في السيارة الضخمة، قال لها:

ـ لقد وضعت المهد في المقعد الخلفي.

ردت بأدب: «إنه لطف منك ولكنني أفضل أن أحملها فهي خير من يصرخ وأعلم أن صراخها سيدفعك إلى التوقف جانباً لأحملها».

ـ حسناً، كما تريدين مع أنني أرى أن من الخطأ تدليل الأطفال بهذه الطريقة.

تمتمت لنفسها: خنزيرا وغضبت مجدداً على قسوة قلبه..

سألته وهو يستوي خلف المقود:

ـ ألديك الكثير؟

ـ ماذا؟

ـ أولاد. . تبدو وكأن لديك نصف دزينة.

ـ أنا أعزب، وهذا ما أنوي الحفاظ عليه.

تمت الرحلة بصمت وتجهم حتى قررت ميرا أن تنعش الأمور، فبدأت بالصراخ. وحاولت أستيرا تهدئتها، لكن ميرا لم ترغب في التوقف.

صاح زاكاري: «رباه، متى تتوقف؟»

ـ نحب أن يسير بها أحدهم.

أسرع يوقف السيارة وقال بحدة: سيري بها إذن.

سألته بعذوبة: «ألن تعتقد أنني أبالغ في تدليلها؟»

نظر إليها نظرة ذات معنى، ثم نزل ليفتح لها الباب، ترجلت أستيرا وراحت تتمشى بها ثم أحست بأن الطفلة مبللة فغيرت لها ثم عادت لتتمشى مرة أخرى، وما إن غطت ميرا في النوم حتى عادت أدراجها إلى السيارة، التي سرعان ما انطلقت بهدوء.

في تلك اللحظة بالضبط فكرت في طرح سؤال آخر:

ـ ألم تعارض أمك حين أخبرتها بأمر ميرا. . سيد نورتنغاتون؟

أشاح عينيه لحظة عن الطريق، وحطهما بنظرة شاملة على أستيرا والطفلة النائمة، ثم عاد ينظر أمامه. .

ـ لم أخبرها شيئاً عن الطفلة.

ـ لم تخبرها؟

نظرت إليه مستغربة فأردف:

ـ اتصلت بها طبعاً وأخبرتها أنني أحمل إليها اليوم مفاجأة صغيرة. . لكن. .

صاحت: «مفاجأة صغيرة؟»

صاحت ميرا في منامها، فحذرها زاكاري: «صه، الطفلة!».

اضطرت أستيرا إلى سحب عدة أنفاس عميقة.

ـ تقصد أنك لم تخبرها شيئاً عن الطفلة؟ ألم تقل لها إن المفاجأة الصغيرة هي ابنة نابغل؟ وأن في نيتك ترك ميرا معها حين نعود إلى لندن غداً؟

قال لها ببرود: «هدئي من روعك آنسة موفيت. . وجدت أن من الأفضل أن تكون هناك حين تزف إليها خبر الحفيدة الأولى وأضيفي إلى هذا أنك قلت إنك ستتركين الطفلة في «البيغ هاوس» إذا أحست أن كل شيء على ما يرام. . لذلك ترين أنني لا أستطيع أن أقول لها إن حفيدتها ستبقى في رعايتها فترة قصيرة، وهناك علامات استفهام صغيرة بالنسبة لإخطارها بالأمر اليوم أو غداً».

ـ لكن. .

ـ كيف لي أن أخيب أملها؟ ألم تقولي إنها ستجن فرحاً بطفلة أخي؟

ابتلعت أستيرا ريقها بغضب، وصاحت: «أكره منطقك السليم!».

تحركت مشاعرها وهي تتصور سيدة لطيفة عجوز متشعر بأنها مشتتة ومدمرة حينما تقرر العودة بالصغيرة إلى لندن وقالت بعناد:

ـ أظن أن علينا أن نطلب من أمك الاحتفاظ بالطفلة على أي حال سيد نورتنغاتون.

صدمها مرة أخرى:

ـ لن نطلب منها، إن كانت ردة فعلها نحو الطفلة كما تتوقعين فستسعى جاهدة لإبقاء الطفلة معها. . على فكرة. . نادني زاكاري.

رفضت مناداته باسمه الأول، أو حتى التفوه بكلمة أخرى فكان أن تمت الرحلة بصمت..

«البيغ هاوس» منزل ريفي كبير مبني على أراض تابعة له. عندما توقف زاكاري أخيراً أمام المبنى الضخم حارت أستيرا وهاجت بها الهواجس، أمسكت ميرا فأحست بطمأنينة بسيطة غير أنه حثها على الدخول عبر ردهة كثيفة السجاد.. وبدا لها أنه يعرف مكان وجود أمه، فقد فتح باباً يفضي إلى غرفة استقبال.

لم تغفل نظرة أستيرا الأولى إلى السيدة الارستقراطية المستقيمة القامة شيئاً لتهدئة ارتباكها.

- زاكاري!

قالت السيدة نورتنغاتون، وعيناها الزرقاوان تنتقلان من ابنها البكر إلى رفيقته وإلى الطفلة التي تحملها. فرد عليها:

- قلت لك إنني آت اليوم.

- كنت أترقب هدير سيارتك ولكنني على ما يبدو غفوت بضع دقائق.

خطت بضع خطوات لتستقبلهما في منتصف الغرفة.

كانت أستيرا قد بدأت تكوّن وجهة نظر مفادها أنّ لا فرصة لترك ميرا مع هذه المرأة الباردة المظهر. فجأة بدأت ميرا تتململ، فانحنت السيدة نورتنغاتون لتتأملها عن كثب.. وتوقعت أستيرا بناء على تجارب سابقة أن تشرع الصغيرة بالبكاء ولكنها لم تفعل بل نظرت الصغيرة إلى جدتها، وابتسمت أحلى الابتسامات ثم أخذت تناغي بسعادة!

قال زاكاري في الوقت نفسه: «أمي هذه أستيرا».

انتفضت أستيرا من هذه الظاهرة التي لا تعرف لها سبباً.. ورأت زاكاري الذي يعرف جيداً الجانب السيء في طباع ميرا

مذهولاً أيضاً. أما أمه فبدت وكأنها ستفقد صوابها.. لاحظت أستيرا أن السيدة نورتنغاتون قد فقدت مظهرها الصارم، وبدأت تبتسم!

سألت السيدة الطفلة بلهجة مداعبة:

- ومن أنت أيتها الطفلة الحلوة؟

نسيت أن ابنها لم يتم كلامه ولكنه أردف وعيناه ترقبان أمه، وقد قرر أن يقوم بواجب التعارف مع أستيرا.

- هذه ميرا قالتينا نورتنغاتون.

لم يكن بحاجة إلى أكثر من هذه الكلمات ليجتذب اهتمام السيدة نورتنغاتون التي شهقت: «ميرا قالتينا».

- الاسم العائلي.. أمي، هذه حفيدتك!

أسكت الذهول السيدة نورتنغاتون بضع لحظات وراحت تنظر مشدوهة إلى الطفلة وأستيرا، ومن ثمّ إلى ابنها.. وتمكنت أخيراً من التماسك وصاحت:

- رباه! ومتى تزوجتما؟

فتحت أستيرا فمها لتنفي هذا.. ولكن قبل أن تتفوه بكلمة قال زاكاري:

- أنا.. بل نحن.. أستيرا وأنا غير متزوجين.

- لستما متزوجين؟

قالت أستيرا في نفسها رويدك سيدتي! فقد أدركت وهي تراقب أسارير السيدة تتغير أن هناك مشاكل قادمة. خالتها للوهلة الأولى باردة.. وها هي تتحول إلى وجه خال من التعبير متورد غضباً.

- كيف تجرؤ على السماح لهذه الطفلة، حفيدتي، بالمجيء إلى هذه الدنيا بطريقة غير شرعية!

يا الله! إن السيدة منزعجة أشد الإنزعاج. نظرت أستيرا إلى زاكاري متسائلة عن سبب تأخره في شرح الحقيقة. كانت على وشك تولي عملية الشرح بنفسها، لكنها ترددت. فمن الواضح أن السيدة نورتنغاتون مشتعلة غضباً، لذلك ربما كان، وهو يعرف ما لا تعرفه أستيرا، يبحث عن أكثر الطرق دبلوماسية للالتفاف حول الأمر.

بدا الصمت وكأنه سيستمر إلى الأبد.. لكن حين عرفت أستيرا أن عليها قول شيء، بلباقة أو بدونها، اختارت ميرا تلك اللحظة بالذات لإشعار الجميع بوجودها. فأجهشت بالبكاء والصراخ فكان أن اضطرت أستيرا إلى القول معتذرة:

ـ لا أظنها ستسكت قبل أن أطعمها.

خاطبت السيدة نورتنغاتون ابنها ببرود:

ـ أرشد الآنسة، إلى غرفة الأطفال.

لاحظ كما لاحظت أنه غير مرحب بهما. ليس الآن على أي حال، لكنه أذهلها بالقول:

ـ فكرت أن نمضي ليلتنا هنا.

ردت أمه بجفاء: «إنه منزلك. ولكن ما دمت أنا تحت سقفه فعليك وعلى صديقتك احترامي والنوم في غرفتين منفصلتين».

أرادت أستيرا أن ترد ولكن صياح الطفلة حال بينها وبين ذلك.

لم يقل أي منهما كلمة أثناء ارتقاء الدرج.. ولكن ما إن أصبحا في غرفة أطفال واسعة منيرة حتى قالت بحدة: «لن أبقى هنا».

كان رده الوحيد قبل أن يخرج: «سأحضر الملابس».

سيحضر على الأرجح ما لا لزوم له من الملابس راحت تمعن النظر في ما حولها فلاحظت أن كل شيء في هذه الغرفة جديد.

مهد بدون فراش في الزاوية، وفي الأخرى وسائل غسل وتحضير الرضعات.. السير مع ميرا، كان قد أصبح عادة لها وهكذا سارت أستيرا إلى باب مشترك مفتوح، يفضي إلى غرفة نوم منفردة وهي غرفة تعد عادة للمربية.

عادت إلى غرفة الطفل، في الوقت الذي عاد فيه زاكاري محملاً بكل ما قد تحتاج إليه، وأكثر.. وكأنما ظهور الحقيبة الحاوية على الطعام الذي تتشوق إليه كان أكثر من تحملها، فرفعت ميرا وتيرة الصراخ.

قال زاكاري، متطوعاً حين توقفت ميرا لتلتقط أنفاسها: «هل أستطيع المساعدة؟»

ـ لا.. شكراً لك.

فتركها تفعل ما تشاء.

عندما عاد بعد ساعة، كانت جالسة في مقعد تحمل ميرا التي تمتص آخر ما في قنينة الرضاعة من حليب. سألها، وهو يجر كرسياً آخر ليجلس مراقباً ما يجري: «كيف الحال؟».

ـ تأكل ببطء. لم ينعتني أحد قط بالفسق.

ـ لم تقصد أمي ذلك. أنا آسف.. حين شاهدت كيف تعلقت بالطفلة التي تناغيها نسيت التأثير الذي سيقع على كاهلها حين تعرف أنها حفيدة غير شرعية.

نظرت إلى عينيه فلما قرأت الدفء فيهما ذاب غضبها واضطرت إلى القول:

ـ وأنا أيضاً لم أفكر في هذه النقطة.

تغيرت خفقات قلبها حين ابتسم زاكاري بلطف.. ولكنها سرعان ما أقنعت نفسها أن سبب هذه الخفقة الجوع ليس إلاّ. ظلت محنية الرأس وهي تفكر، ثم تقول:

ـ ظنتها ستفاجأ حين تعلم أن لها حفيدة، ولا أظنها ستكون مسرورة من نايغل.

ـ لم أخبرها شيئاً حتى الآن.

ارتفع رأسها بحدة: «لم تخبرها؟»

اختفت ابتسامته ومع ذلك لم تتراجع:

ـ ألم يكن لديك وقت لإخطارها بأن نايغل هو والد ميرا؟

كانت تظن أن الساعة التي اختفى فيها كافية ليخبر أمه القصة كلها، ولكنه قال:

ـ أعني.. أنني.. لن أستطيع أن أقول لها.

صاحت: «لا تستطيع؟».

تساءلت ماذا في هذا الرجل الذي يحول طباعها اللينة إلى نيران مشتعلة، وقالت تتحداه:

ـ ماذا تعني أنك لا تستطيع أن تخبرها؟ بالطبع تستطيع.. ويجب أن تقول و..

نظر إلى عينيها المشتعلتين ثم تمتم:

ـ سبق أن قلت لك إنك عجولة حادة الطباع.. ولكن يحق لك أن تغضبي قليلاً لأنني لم أكن صريحاً.

تأرجحت أعصابها لأنه اعترف بعدم صراحته معها. فجأة شعرت بالقلق. كانت تعلم أنه رجل قاسي، استطاع إنهاء مستقبل أخيه بلا رحمة، ولكنها فجأة أحست إحساساً مخيفاً بأن كلامه المتعلق بعدم قدرته على إدارة ظهره للحمه ودمه كان مجرد ذر رماد في العيون.. فهل كان يستغلها وميرا، من أجل مآرب شيطاني في نفسه؟ فكرت أستيرا أن الوقت قد حان لمعرفة الحقيقة. فسألته ببرود:

ـ هلا أجبرت نفسك سيد تورتنغاتون، على بوح الحقيقة لي

شارحاً سبب حملي على المجيء وميرا إلى هنا.

لم تعجبه لهجتها وقد عرفت ذلك من عينيه اللتين ضاقتا وكأنهما تحذرانها بأنه لن يقول لها شيئاً، فأردفت تتحداه بحدة:

ـ لم يكن الهدف مصلحة ميرا أو مصلحتي، أليس كذلك؟

اعترف ببطء: «ليس تماماً، علماً أنني أهتم لأمر الطفلة ولهذا زرتك يوم الثلاثاء».

قالت ببرود: «أردت أن تعرف نوع الزريبة التي تعيش فيها؟».

ـ ولأكلمك عن الأمور المالية.

صاحت به: «في نفسك أكثر من هذه الغاية، أعرف الآن أنك أعددت خطة خبيثة قبل أن تقرع بابي».

ـ خبيثة..؟ أؤكد لك أن الخطة الوحيدة كانت أن..

ـ أن تتأكد من حملي على الانتقال إلى هنا.

ـ تلك الفكرة لم تخطر لي على بال حتى وضعتها أنت فيه.

ـ أنا وضعتها؟

هز رأسه: «أجل، أكدت لي أن الجدات يشعرن بالسرور لدى رؤية الحفيد الأول. ألم تقولي لو أن ميرا ابنتك لجئت بها إلى أمك.. فلم أستطع سوى التساؤل عما إذا كانت ستسامحنا ما إن تتعرف إلى الطفلة».

ذهلت أستيرا للحظات: «ولماذا لن تسامحك؟».

رد بهدوء: «لا أشير إلى نفسي».

ـ نايغل؟ ماذا فعل؟

ـ بل ما الذي لم يفعله؟ تباً. إن تصرفه النذل مع صديقتك يظهر لك أنه ليس ملاكاً..

ـ وهل نال نايغل من الدلال قسطاً وفيراً؟ خلتك أنت المدلل فمما قاله نايغل لغولي فهمت أنك المفضل لدى أمك.

قال زاكاري بصراحة معاملة:

- نابغل يرى أن جميع الناس مخطئون إلا نفسه ولكن الواقع هو أنه الطفل الثاني الذي طال انتظاره، كان مرغوباً، ومحبوباً، ومدللاً إلى أقصى حد. لقد شب وأصبح رجلاً ولكنه كان يملك إضافة إلى حسناته صفات أخرى رديئة.

- تحطيم قلب صديقتي إحداها.

- لم تكن الوحيدة صديقتك التي عانت من تحطم قلبها على يده.

- وهل اعتاد على دفع النساء إلى الاعتقاد بأنه مجنون بحبهن.. لم..!

- لا. ليس حسب علمي.. كنت أتحدث عن تحطيم القلب الذي سببه وما زال يسببه لأمه..

- السيدة نورتنغاتون؟

كانت ترى في هذه المرأة نموذجاً للبرودة والحزم لذا فوجئت حين تحدث عن قلبها المحطم. وأدركت أن برودة تلك المرأة تعود إلى ما أصابها.

فجأة أدركت أنها تلين.. كانت تحاول بجهدها أن تكون قاسية كزاكاري حين تابع يقول:

- كانت تعتبره أمي المثال الأعلى حتى كانت السنة الماضية التي قرر فيها البدء بعمل خاص به.

قاطعته وهي تحاول أن تبدو قاسية:

- بعدما طردته من عمله بلا رحمة أو محبة..

تردد قليلاً ثم قال:

- تعرفين أكثر مما ظننت. أجل، بعدما رميته خارجاً.. كان لديه خطة لجمع ملايينه الخاصة.. لكن مشاريعه احتاجت إلى

استثمار الآلاف قبل أن تقلع عن الأرض.. وهي آلاف لم يكن يملكها.

فهمت أستيرا فوراً: «وهل أقرضته أمك المال؟»

- نعم، إنما بدون أن تخبرني. وقد وصل بها الأمر إلى رهن هذا المنزل.

بدأت الصورة التي يرسمها تتضح فقالت أستيرا:

- المؤسسة التي أسسها أفلست.. وتحطم قلب أمك حين فشل في ردها لها؟

- ليس المال هو ما آلمها بل تصرف نابغل اللامبالي حين أظهر عدم اهتمامه خاصة وهي ترى أن بينها الحبيب على وشك أن يولي.. تبع هذا شجار مرير تطاير الزبد فيه. وانتهى الأمر بأن قالت له أمي إنها لن تسامحه أبداً وإنها لا تريد رؤيته وكانت كلماته التي ودعها فيها هو تمني الموت لها.

صاحت أستيرا بصوت أجش: «يا الله!»

- إن دهشتك لا تقارن بما أصاب أمي.

- ألم تخبرك أمك بما جرى؟

- أشك في أن تخبرني حتى الآن. ولكنني عرفت صدفة أن شيئاً ما قد حدث، كنت أعرف مدى تعلقها بهذا المنزل لذلك لم أستطع فهم ما يدفعها إلى القول إنه منزل ضخم عليها.

- كانت تستعد لتسليمه؟

هز رأسه: «هذا ما كانت ستقدم عليه لولا الصدفة. زرت يوماً مصرفها عندما احتجت إلى بعض المال وقد.. فكرت وقتذاك أن صرف شيك من مصرفها لن يدوم سوى دقائق. ولكن مدير المصرف استدعاني ليعتذر شخصياً قائلاً إن لا خيار أمامه سوى

الاستيلاء على المنزل».

ـ لقد صدمك الخبر طبعاً.

سرعان ما أدركت أنه اتخذ خطوات فورية لمنع الاستيلاء، ولكنها تذكرت شيئاً:

ـ قالت أمك إن هذا منزلك.

ـ هذا مجرد احتراس لئلا يتكرر ما حدث مرة أخرى. حولت الملكية إلي ولكنه منزلها، مع أنني لم أكن بحاجة للقلق، فنايغل لم يقترب منها منذ شجاره. والآن أصل إلى بيت القصيد، فبب ما فعله بأمي أجدني غير قادر حالياً على الاعتراف أن والد ميرا هو نايغل. وها أنا الآن أطلب عونك.

ـ أنا مصغية..

ـ إن أمي تشعر بالألم والإحباط لأنها لم ترَ ابنها منذ سنة تقريباً.. لقد رأيتها تزداد نكداً.. مع مرور الأيام.. وما السبب إلا ألمها العميق الذي تأبى كرامتها الاعتراف به.

بدأت أستيرا تحس بصدع في دفاعاتها.. ولم يعجبها هذا الإحساس. فسألت: «وماذا عن نايغل؟»

ـ ازداد عناداً.

ـ أكنت تراه؟

ـ أحياناً.. اعتقدت أنني قد أساهم في اندمال الجرح الذي يدمر حياتنا فطالبته بزيارة أمه ليربح بالها.

ـ ورفض؟

ـ بل أصرّ بعناد على موقفه، وقال إن أمه تعرف المكان الذي يقيم فيه إن أرادت الاعتذار منه.

قررت أستيرا أن تتوقف عن بحث أمور نايغل، وعناده. فمشاكل غولي بدأت عندما أصرّ بعناد علي أن تجهض. قالت

وهي تحاول التظاهر بالقسوة:

ـ سيئوبان يوماً إلى تعقلهما.

ـ الوقت ضد أمي.. فهي لم تعد صغيرة، وأضيفي إلى ذلك أنها تعسة. نعم أنا قادر على إعطائها ما تريد من المال ولكن المال لا يشتري كل شيء خاصة المصالحة مع ابنها.

ـ ولكنك قلت إنها أقسمت على ألا تغفر له!

ـ وأنت قلت إن الأم تغفر كل شيء حين ترى حفيدها الأول.

فجأة اتضح كل شيء:

ـ آه!.. إذن لهذا جئت بميرا إلى هنا!

ـ أعترف بهذا، لكن خطتي تهشمت حين ظنت أمي أن حفيدتها غير شرعية.

ـ ولهذا السبب لم تستطع إخبارها بما فعل نايغل بالطفلة.. لأنها..

ـ لأنها من وجهة نظرها الأخلاقية، تعتبر ما فعله خطيئة لا تغتفر. آرين، لو قلت لها الحقيقة لتعاظم ألمها أكثر.

وفهمت أستيرا.. فلن تنسى تعابير وجهها عندما قال لأمه إنهما غير متزوجين.. ولن تنسى غضبها حين التفتت إليه سائلة: «كيف تجرؤ على أن تسمح لحفيدتي بالمجيء إلى الدنيا بطريقة غير شرعية؟» ولقد شاهدت أستيرا بنفسها أن أي أمل للصلح بين أمه وأخيه، سيتلاشى لو علمت الحقيقة.

ـ ولكننا.. أنت لا تستطيع أن تتركها تمضي قدماً بالاعتقاد أن ميرا ابنتك!

حذرتها النظرة الفولاذية التي أطلت من عينيه، من أنها ستتلقى رداً قاسياً «لماذا لا أستطيع» ولكنها لم تتلقه. أمعن فيها النظر لبعض الوقت.. ثم سألها بوقار:

ـ وما الضير في ذلك؟ إنه لا يوازي أمر جلب حفيدة غير حفيدتها لتخدعها. ميرا من لحمها ودمها.. على أي حال.

ـ أجل.. لكن..

ـ إنها مصابة بجرح عميق.. أترغبين في تفاقم المها؟ ألا تستطيعين مجاراتي حتى أجد اللحظة المناسبة؟.

لامس كلامه شغاف قلب أستيرا الرقيق، فهي لا تريد أن يتألم أحد غير أن الأمر كله ليس صواباً.. يجب أن تتخذ موقفاً.. لقد اعتاد زاكاري نورتنغاتون على دفعها، وحان لها أن توقفه عند حده! قالت بثبات:

ـ أنا غير موافقة! فمجاراتك قد تجعل أمك تفترض أنني أم ميرا.. وهذا..

قاطعها: «وهذا ما سيكون لصالح الجميع».

قالت ببطء: «لا أوافقك الرأي».

أحست بكارثة توشك أن تقع على رأسها حين التفت زاكاري وقال:

ـ إن كنت أماً لميرا عزيزتي فلن يستطيع أحد منعك من اصطحابها إلى لندن غداً.

وخزتها سهام الإنذار.. فسألت تحاول كبح ذعرها: «ماذا تقول بالتحديد؟»

ـ فكري ملياً في الأمر تجدي أن لنا كل الحقوق التي تملكينها بحق ميرا.

شهقت: «لا، لا يمكنك فعل ذلك بي».

لكنه قادر..!

ـ لا أضمن أمي في هذا الصدد. أما إن لعبت الدور كما أريد فلن يحدث أبداً ما تخشينه.

أدركت أستيرا أن زاكاري نورتنغاتون يخبىء حتماً الورقة الرابحة في كمّه طوال الوقت، ولهذا كرهته. بدا لها أن لا نهاية لتفكيره الهادىء، المخادع..

سألها وكأنه أمهلها وقتاً للتفكير:

ـ حسناً.. ما ردك؟

اللعنة عليه.. يعرف جيداً أنها لا تستطيع إلا الموافقة. سألته بحدة وهي رافضة أن ترضيه بموافقتها:

ـ ماذا يفعل الكبار هنا للغداء؟

كانت تدرك أنه يعرف أنه انتصر. وقال لها بلطف وهو ينظر إلى ميرا النائمة:

ـ إن استطعت ترك الطفلة اصطحبتك..

قاطعته بحدة: «لن أتركها».

رد بخفة: «إذن سأرسل لك صينية طعام».

وتركها.. فكرهته أكثر فأكثر.. فهو لا يتوانى عن استغلالها. الجلمود ألين منه!

* * *

٤ ـ زوجة من؟

أرسل زاكاري لأستيرا صينية طعام الغداء. كانت تفكر في الفخ الذي جرت نفسها إليه بيدها حين أنت امرأة ممتلئة الجسم في منتصف الخمسين حاملة الطعام.

ما كادت تضع الصينية من يدها، حتى انحنت فوق ميرا النائمة، ودندنت بصوت رقيق: «ألست رائعة؟»

التفتت تنظر إلى أستيرا للحظة وهمست:

ـ أنا آسفة.. أنا روزي سومرز.. كنت أتوق إلى رؤية الطفلة منذ أخبرتني السيدة نورتنغاتون بوجودها وقد سألتني السيدة إذا كنت أرغب في العمل ساعات إضافية.

قدمت أستيرا نفسها:

ـ أنا أستيرا موفيت.. اعتقدت أن هناك شخصين آخرين يقومان بالعمل الإضافي.

ردت روزي بحرارة: «ثمة خدم كثر.. ولكن، عُهد إليّ أن أساعد في رعاية هذه الطفلة الحبيبة الحلوة.. أرجو ألا تعترضي، فقد تمسكت بهذه الفرصة بكل قواي. اعتنيت بأولاد السيدة نورتنغاتون كما اعتنيت بأولادي الأربعة».

وكأنها تقدم أوراق توصية.

لاحظت أستيرا اللهفة في عيني المرأة، فسألتها علها تريحها:

«أتعيشين في الجوار سيدة سومرز؟»

ـ في القرية. أرجوك نادييني روزي.. إذن، لا بأس إن ساعدتك بالطفلة؟

غضبت أستيرا، لكن أمام لهفة المرأة قالت لها: «إن أحببت ذلك».

ردت روزي بحماس: «وكيف لا أحب ذلك، هل لي بحملها أثناء تناولك الغداء؟».

كان بمقدور ميرا النوم في مهدها المحمول الذي أحضره لها زاكاري، ولكن لم تخف على أستيرا لهفة هذه المرأة فقالت: طبعاً.

بدا الرضى على روزي وهي تحمل الطفلة:

ـ كأنني عدت إلى الماضي.

كانت محبة روزي للأطفال واضحة للجميع. وقالت المرأة فجأة:

ـ أظن أن معك بعض الغسيل لهذه الحلوة الصغيرة.. سأغسلها ثم أحضر الفراش هناك، فقد طلبت السيدة نورتنغاتون أن أنام الليلة هنا.. وسأكون قريبة حاضرة في ما لو بكت ميرا...

قاطعتها أستيرا: «ظننت أنني أنا من سيستخدم هذه الغرفة».

ـ آه، ولكن السيدة نورتنغاتون أعدت لك غرفة في آخر الرواق.. عرفت هذا لأنني رأيت زاكاري يحمل إليها حقيبة ملابس صغيرة.

شعرت بأن الأمور تنسل من بين يديها، حين قالت روزي:

ـ لن أخذلك آنسة موفيت.. أعدك. أنا معتادة على رعاية الأطفال..

ردت أستيرا صادقة: «واثقة أنا من أنك لن تخذليني..»

ـ لا تقلقي يا سيدتي.

قالت أستيرا:

ـ ولكن ميرا ترهق المرء فهي دائمة البكاء ليلاً وهذا يعني أنك لن تأخذي قسطاً وافياً من النوم.

ردت روزي مبتسمة:

ـ أعرف كل شيء عن هذا. كان ابني جو شيطاناً!

زادت ثقة أستيرا بروزي حين استيقظت ميرا وشرعت بالبكاء بلا انقطاع، وكانت على وشك أن تتولى أمرها. لكنها تراجعت، وأخذت تراقب كيف سعت المرأة إلى تهدئتها.

أخيراً، تعبت ميرا وعادت إلى النوم، فقالت روزي: «لن يضير إن حملناها قليلاً في الرواق، أتودين أن أرشدك إلى غرفتك؟»

كانت الغرفة التي صحبتها إليها روزي أنيقة. قالت أستيرا وهي ترى حقيبتها في أسفل السرير:

ـ إنها غرفة جميلة.

أحست أن روزي لا تقوى صبراً حتى تكون وحدها مع الطفلة، فأردفت:

ـ اعتني رجاء بميرا في ما أوضب أنا ثيابي!

ـ أنا واثقة من هذا.

وظلت أستيرا في غرفتها حتى آن وقت إرضاع الصغيرة فتوجهت إلى غرفة الأطفال. كانت غرفة الأطفال في آخر الرواق، وفيما هي متوجهة إليها، انفتح الباب وخرجت السيدة نورتنغاتون مبتسمة ولكن هذه الابتسامة سرعان ما اختفت عندما وقع نظرها على أستيرا التي تلقت منها سؤالاً:

ـ هل أرضتك غرفتك آنسة موفيت؟

ـ تماماً.. شكراً لك.

أحنت السيدة الأرستقراطية رأسها:

ـ إذن أراك وقت العشاء في السابعة والنصف.

سيضطر زاكاري نورتنغاتون إلى انتظار طويل إذا كان لا ينوي البوح بالحقيقة لأمه فمن خلال ملامح هذه السيدة القاسية ترى أنها ستبقى على إيمانها بأن أستيرا وزاكاري هما والدا الطفلة. وهذا ما ذكرها بقوله: «هذا بكل تأكيد لمصلحة الجميع..» وقوله: إن ظنّ الجميع أنك أم ميرا فلن يستطيع أحد حرمانك منها.

تسللت سهام الذعر من جديد إلى نفسها بعدما أدركت هشاشة موقفها، وتجنباً للكابوس الذي بدأ يسيطر عليها أدارت مسكة الباب ودخلت سائلة:

ـ أكل شيء على ما يرام؟

ابتسمت روزي: «لقد أمضينا وقتاً جميلاً. لقد حممتها والآن سنتناول الشاي.. أليس كذلك يا حبيبتي؟»

سألتها أستيرا: «أكانت وديعة؟»

ردت روزي: «بَيْن بَيْن ولكنها كانت في أفضل حالاتها عندما أتت السيدة نورتنغاتون ولم تكترث بالسيد كاوتر حين نقل الفراش إلى المهد».

ـ الفراش؟

استدارت أستيرا بسرعة فرأت فوق المهد فراشاً لم يكن سابقاً هناك.. وأكدت لها روزي بسرعة:

ـ لا بأس به.. أرسلت السيدة زاكاري لشرائه فور وصولكم. حملت روزي ميرا لتطعمها الحليب.

ـ لا حدود لاهتمام جدتك بك، أليس كذلك يا غاليتي؟

جلست أستيرا في الكرسي الذي استخدمه زاكاري سابقاً،

وأخذت تراقب خبرة روزي في تعاملها مع الطفلة.

أحست أنها لم تفهم قول روزي عن أن لا حدود لاهتمام جدتك بك، وسألت:

- رأيت السيدة نورتنغانون تخرج منذ قليل سعيدة.

- بدت كحالها في سابق عهدها.

ثم سارعت تلوذ بالصمت وكأنها أدركت أنها تتكلم عن غير وجه حق، ثم أحنت رأسها إلى ميرا.. وتمتمت:

- أستطيع القول إنك تعرفين كل شيء عن تناسي نايغل وجود أمه. ولكن كيف لا يكون المرء سعيداً خاصة بوجود حفيدة كهذه.

- ألبس لديك أحفاد روزي؟

- آمل هذا على الدوام. لدي ابنتان متزوجتان، ولكن اهتمامهما ينصب على «المايكروبايف» أكثر منه على جعلي أسعد امرأة في الوجود.

بقيت أستيرا في غرفة الأطفال تثرثر مع روزي التي كانت تطعم الطفلة وتُعدّها للنوم. عندما حلت الساعة السابعة ودت لو تتناول العشاء هناك، ولكن بوجود روزي الأكفأ منها في العناية بالطفلة وبتبني السيدة نورتنغانون دور المضيفة، أدركت أستيرا أنها مدينة للسيدة العجوز بشيء من المجاملة والاحترام. فقالت لروزي:

- يجب أن أسرع، وإلا تأخرت على موعد العشاء.

عندما أصبحت في غرفتها، اغتسلت ووضعت كريماً ملطفاً على بشرتها ثم اتجهت إلى الخزانة وهي مرتدية ثيابها الداخلية فاختارت ثوباً يسهل غسله آملة ألا تكون في منزل معتادٍ أهله على ارتداء الثياب الفاخرة وقت العشاء. في تلك اللحظة طُرِق الباب فأسرعت تستر نفسها بالفستان بدل ارتداء الروب.

- نعم؟

كان زاكاري يقف مرتدياً البذلة الرسمية.. رفع حاجبه قليلاً واعتلت شفتيه ابتسامة خفيفة.. قال بتشدق: فاتنة!

أكان هذا وصف «النعم» الحادة أم لوجهها المشرق؟ وأكمل متمتماً:

- أرى أنك لست جاهزة.. العشاء في السابعة والنصف.. هل أنتظر؟

وبرقت أسنانه البيضاء فردت بحدة قبل أن تقفل الباب في وجهه: «سأجد طريقي بنفسي».

بعد لحظة، كانت أسنانها البيضاء ظاهرة.. ومع ذلك، لم تستطع فهم سبب إحساسها بأن هذا الحديث المختصر كان مسلياً.. فجأة لُفت ابتسامتها.. ولكن، يا للغرابة.. الضحكة التي شهدتها على وجه زاكاري كانت أصعب من أن تمحى من ذاكرتها.

بعد سبع دقائق، خرجت مسرعة من غرفتها.. ولكنها لم تلبث أن أبطأت الخطى قبل أن تهبط الدرج العريض.

ظهر زاكاري من حيث لا تعلم وما إن وصلت إلى منبسط الدرج حتى قال: «دقيقة واحدة حتى السابعة والنصف». أمسك بمرفقها ثم اصطحبها إلى غرفة الطعام.

سحبت نفساً عميقاً وعندما فتح الباب استولى عليها القلق بسبب الكذب الذي اختلقه أمام أمه، وبما أنها لم تتصور أن فترة الطعام ستمضي بدون ذكر موضوع ميرا فقد توقعت وقتاً غير مريح.

كان اعتقادها بأن العشاء سيضمهم هم الثلاثة غير صحيح. ففي قاعة الطعام رجل قصير بدين، على عنقه باقة تدل على أنه

كاهن، كان يقف قرب المدفأة يحاور مضيفته.

كان واضحاً أن زاكاري يعرف الكاهن لأنه سارع يعرفها إليه. تلاشى شيء من ارتباك أستيرا لأنه تبين لها أن الكاهن السيد ميد سيرنغز، كان مدعواً إلى العشاء قبل أن تعرف السيدة نورتنغاتون ذات الأخلاق المتزمتة يستحيل عليها أن تلغي موعداً سابقاً لمجرد اصطحاب ابنها لضيف غير متوقع، ويبدو أن السيدة لن تذكر أمام الكاهن وجود ضيفة أخرى تعتبرها العجوز طفلة غير شرعية.

تنفست الصعداء.. وجلست إلى الكرسي الذي سحبه لها زاكاري على المائدة. راقبته وهو يتوجه إلى الجانب الآخر ليجلس في مواجهتها.

وصلت السيدة كاونر، لتقدم أول لون من أطباق الطعام، وما إن خرجت حتى بدأت السيدة نورتنغاتون الحديث، وقالت للكاهن:

ـ عائلة أستيرا تقيم في «سوفولك» أعتقد أنك يوماً كنت كاهناً في تلك المنطقة؟

رد الكاهن: «هذا صحيح».

سرعان ما أدركت أستيرا أن السيدة نورتنغاتون أجبرت زاكاري على إفشاء بعض المعلومات عنها.. وسألها الكاهن:

ـ أين يعيش أهلك في سوفولك، آنسة موفيت؟

حافظت على هدوئها وأجابت، ولكنه لم يكن يعرف أحداً في المنطقة التي يقطن فيها أهلها. فكان أن تصاعدت ثقة أستيرا بنفسها، وطفقت تحدثه عن جمال منطقة «سوفولك» حتى وصل الطبق التالي.

لاذت أستيرا إلى الصمت لأن من عدم اللياقة الاستئثار

بالحديث كله. راحت تصغي إلى الكاهن ولكن حين علّق زاكاري بتعليق ما نظرت إلى تعابير وجهه الجدية، تذكرت كيف وقف في باب غرفتها مبتسماً.

بدا لها أن من المستحيل على رجل مثله أن يمتلك تلك الضحكة! ثم أدركت أن الحديث ما يزال جارياً، وأدركت كذلك أنها تحدق بفم زاكاري، وكأنها تتمنى لو تظهر تلك الابتسامة مجدداً.

يا الله! نهرت نفسها منتزعة عينيها عنه ثم سعت إلى مجاراة الحديث الدائر الآن بين الكاهن والسيدة نورتنغاتون.. من الواضح على ما يبدو أن زفافاً قريباً يوشك أن يُقام في القرية.

كانت السيدة نورتنغاتون تقول وهي تنظر خلسة إلى زاكاري:

ـ في مثل هذه الظروف.. سيكون زفافاً هادئاً.

لم تتابع أستيرا نظرة السيدة إلى زاكاري، فهي لا تريد أن تنظر إليه بل لا يهمها ما إذا كانت تلك البسمة هي الأولى والبئيمة. استقرت نظراتها على والدته متابعة الحديث الدائر عن إقامة زفاف هادئ، بسبب فقدان إحدى العائلتين عزيزاً.. وبدا لها أيضاً أن السيدة ستشارك بهذا الزفاف كما سيشارك به زاكاري أيضاً.

بعد دقائق، أدركت أستيرا بوجل أن عليها أيضاً المشاركة بهذا الزفاف بل الواقع أنهم كانوا يبحثون أمر زفافها هي!

ركزت السيدة نورتنغاتون نظرها عليها.

ـ أتمنى عليك أستيرا ألا ترتدي الثوب الأبيض.

سألت حائرة: «أنا؟ آسفة».

وأجابت السيدة بصوت متوتر:

ـ ستكون الأفاويل في القرية كافية وذلك بعدما تتناول الألسن أن حفيدتي ولدت من أبوين غير متزوجين.. لذا لا أريد المزيد

من مسببات الهزء باسم عائلتنا فالوصول إلى حفل الزفاف بثوب أبيض سيضرم نيران الألسن.

في رد العجوز معاني كثيرة تعترض عليها أستيرا ولكنها كانت مصدومة صدمة عنيفة لأنها أدركت أنها كانت تجلس كالبلهاء مصغية إلى الحديث الدائر حول زفافها. أما الآن فلم تستطع سوى التحديق إلى ما حولها بذهول تام.

عرفت أستيرا أن الكاهن يعرف كل شيء عن سيرا، كما عرفت أنه لم يأت بناء على دعوة سابقة. ومن الواضح أن السيدة تورتنغانون، لم تحتمل مسألة حفيدتها غير الشرعية فاتخذت خطوات فورية لتصحيح الأمور!

نقلت نظرتها المذهولة من السيدة إلى زاكاري الذي وجدته يراقبها بصمت وكأنه يدرك تماماً مدى صدمتها، ولكنه رغم ذلك استقبل نظرة رعبها بثبات، وبتعابير لطيفة. فاستغربت هدوءه. لماذا لا يقول شيئاً؟ فجأة تيقظت وأصبحت حذرة. لم تكن تدري ما الذي يجول في عقله الحاد الذكاء، غير أنها واجهت من قبل أنواعاً مختلفة من خداعه. ربما لا يريد إنكار زواجهما لئلا يحرج أمه أمام الكاهن. ولكن ماذا لو كان يفكر في خدعة ما، إنما عليه أن يعلم أنها لن ترضى أبداً بأن يكون لها يد فيها.

التفتت أستيرا ببرود إلى مضيفتها، بعدما اتضح أنها لن تلقى المساعدة من زاكاري.

ـ سيدة تورتنغانون لن يكون هناك زفاف.

لم تتجمد تعابير العجوز فحسب بل قدّت من جليد ومع ذلك أردفت:

ـ لن أتزوج أنا وزاكاري.

وران صمت رهيب في الغرفة كادت تُسمع معه رنة الدبوس ثم

لم تلبث العجوز أن تمالكت نفسها غير أن أستيرا لم تكن من تلقى سياط لسان السيدة تورتنغانون المنعجرفة بل زاكاري الذي ذكرته بلهجة صاعقة:

ـ لقد دفع والدك المرحوم فيك الإحساس بالشرف.. وفي الواقع أن تصرفاتك لم تجلب العار إلى اسم والدك فقط، بل إلى ذكراه كذلك. والآن عليك بصراحة أن تخبرني، ألا تنوي التصرف بشهامة نحو هذه الشابة؟

وإن صمت مطبق على الغرفة ولو كان نابغل هو من يتلقى هذه الكلمات الملطخة كالصاعقة لتعاطفت معه ولكن زاكاري هو من كان في موقف حرج الآن.. ومع أنها تدرك أنه تركها تقول لأمه إن لا زواج سيجري، إلا أنها لم تستطع أن ترى لماذا لا يتلقى حصته من اللوم ولماذا ترى شيئاً من المتعة في مراقبة تلوي هذا الأعزب المزمن.

أطلقت عليه نظرة، فردها بابتسامة. ظلت الابتسامة على وجهه وهو يرد بنعومة:

ـ أظن، يا أمي، أن أستيرا لن تتزوجني حتى ولو تجاسرت على طلب يدها.

بدت أمه ذاهلة: «وهل أنت خائف أن تسألها؟»

ردت أستيرا، بعدما وجدت فجأة أن المرأة قد خانتها ستقفز إلى أول فرصة للزواج بابنها البكر البغيض:

ـ أفضل الموت على ذلك، ولا شك في أن زاكاري، سينقل على حمالة إلى قسم العناية الفائقة لو تجرأت على المواظبة!

تدخل الكاهن بعدما رأى السيدة تورتنغانون وكأنها مشلولة التفكير:

ـ ربما.. علينا.. أن نترك الزوجين السعيدين حتى يتباحثا

الأمر.

التفتت أستيرا إليه مبتسمة: «ليس بيني وبينه أي نقاش».

توقفت قليلاً عن الكلام ثم أردفت:

ـ ثم.. لدي عملي..

قاطعتها السيدة نورتنغاتون باستغراب: «أتعملين؟».

ـ ليس الآن.. فلدي إجازة.. لدي عملي.. ولا أريد أن يعيقني زوج.

وابتسمت. ولكن السيدة نورتنغاتون أرسلت تلك الابتسامة إلى النسيان:

ـ كان عليك التفكير في عملك قبل أن تحملي بطفلة!

في لحظة غضب، نسيت أستيرا لماذا لا يريد زاكاري أن تعرف أمه حقيقة ميرا. فمن وجهة نظرها تجد أنها تلقت ما يكفي من هذه المرأة المتعجرفة صاحبة النظرة السوداء والبيضاء التي لا تتصور أبداً أن هناك وجوداً للون الرمادي. لقد حان أن تعرف الحقيقة التي ستزعجها.

قالت بدون أن تعي نظرة زاكاري الحادة:

ـ ميرا..

ولكن زاكاري قاطعها بحدة فنظرت إليه فإذا بها ترى نظرة الجنون في عينيه:

ـ ميرا.. ليست إعاقة.. ولن تكون.. إن لم ترغب أستيرا في الزواج بي فلن تتزوج. ولكن في كلتا الحالتين الطفلة مسؤوليتي.

أطبق خوف بارد على قلب أستيرا.. وفتحت فمها لتحتج ولكن لم يخرج منه شيء، فقد تذكرت قوله: «أنت تعرفين أننا قادرون كوننا أقرباء»ها على سلبك جميع الحقوق» عرفت عندئذ أن

كلمة خاطئة واحدة منها، ستنزع منها حق اصطحاب ميرا معها إلى لندن غداً. كما عرفت أن لزاكاري نورتنغاتون اليد العليا.

عبّرت السيدة نورتنغاتون عن رأيها بحدة: «شهامتك تشرفك!».

وعرف جميع المتحلقين حول المائدة أن الموضوع انتهى.

أحست أستيرا بالسعادة لانتهاء وجبة الطعام.. وحاول زاكاري إشراكها وأمه في حديث آخر، ولكن لم تنظر إليه أية واحدة منهما. فيما بعد تجاهلهما ودعا الكاهن إلى حديث عن فريق الكريكت في القرية.

قالت أستيرا حين اقترحت السيدة نورتنغاتون أن تنسحبا إلى غرفة الاستقبال لشرب القهوة:

ـ لو سمحت لي، سأذهب لألقي نظرة على ميرا.

ـ طبعاً.

كادت تبتسم لها وكأنها تفضل أن تظهر أستيرا أمامها مشاعر الأمومة.

لم تشأ أستيرا أن يترك زاكاري مقعده ليرافقها حتى باب غرفة الطعام.. كما لم تشأ أن يأخذ على عاتقه مسألة توديعها بقبلة قبل إيوائها إلى فراشها. قفز قلبها بحدة حين عانقها بحنان وأحست بدفء أنفاسه حين تمتم: «أراك صباحاً حبيبتي».

ردت هامسة لئلا يسمعها غيره: «هذا من سوء حظي».

عندما ضحك ارتبكت لأنها لم تفهم لماذا قفز قلبها قفزة غريبة أخرى ولم تستطع معرفة ما إذا كانت ضحكته حقيقية أم تمثيلية، لأن أمه كان تراقبهما. ولولا اللياقة لارتقت الدرج بسرعة لتبتعد عنه ورغم ذلك حثت الخطى، لكن ويا للغرابة، كان قلبها يخفق بسرعة ليس بسبب الإسراع في المشي، بل بسبب عناقه

ذاك.

وكان أن وجدت أن كل ما في حياتها قد غدا مجنوناً خاصة قلبها الذي يتصرف على هواه بطريقة غير متوقعة. دخلت إلى غرفة الأطفال، وليذهب زاكاري نورتنغانون إلى الجحيم.

* * *

٥ ـ آباء مزيفون

كانت الساعة الواحدة والنصف بعد منتصف الليل، حين استيقظت أستيرا. ما هي إلا دقيقة حتى كانت ترتدي روبها وتتجه إلى غرفة الأطفال.

دخلت إلى الغرفة وهي تزيل خيوط النوم عنها، فرأت روزي سومرز، وميرا بين ذراعيها مستيقظة.

قالت أستيرا: «سأتولى أمرها إن أحببت روزي، أعتقدك مرهقة من السير بهذا الملاك الصغير».

ـ كانت نكدة قليلاً، ولكنني أستطعت معالجة الأمر. لا أنام جيداً منذ وفاة زوجي، لذلك أنا سعيدة بوجود ما أفعله خلال أسوأ ساعات الليل. ستكون ميرا على خير ما يرام إذا أردت العودة إلى النوم.. وثقي بأنني سأطعمها وجبة السادسة.

ابتسمت أستيرا.

ـ أنا واثقة أنني أستطيع الثقة بك.

وعادت إلى غرفتها.

استيقظت ثانية في الخامسة والنصف فنظرت إلى ساعتها بعين واحدة مفتوحة ثم تذكرت وعد روزي «ثقي بي» فترددت لحظات ثم استرخت وعادت إلى النوم.

عندما استيقظت من جديد كانت أشعة الشمس تتسلل من

النافذة..

نهضت أستيرا من الفراش، وهي لا تشعر بالاستقرار. فكرت في الاستحمام ومن ثمَّ التوجه إلى غرفة الأطفال لتتفقد ميرا ولتبحث بعد ذلك عن زاكاري نورتنغاتون.

كانت يد الخوف الباردة تقبض على خفقات قلبها من جديد وشعرت بالكره تجاهه فلم يكن في الأمسية الماضية يمزح ولكن إن أرادت ميرا آمنة من أجل غوليت فعليها مجاراته في لعبته.

تعكّر تفكير أستيرا عندما أعلن صوت صادق صغير في داخلها أن زاكاري لم يتصرف تصرفاً واحداً بغية مصلحته هو بل كانت محاولاته جميعها تهدف إلى إنهاء ألم أمه التي يرغب في أن تسامح نابغل.

صرفت النظر بسرعة عن التفكير في الظروف المحدقة بالموضوع فهو قدر محتال وقاس ثم هاجمتها ذكرى عناقه وضحكته الصغيرة التي بدت صادقة حين ردت قائلة «لسوء الحظ».. إنها حتى الآن غير واثقة ما إذا كانت تلك الضحكة حقيقية، لكنها اكتشفت أن تلك الضحكة جعلت تفكيرها ملبداً بالضباب أكثر مما مضى.. فهي حين فكرت في خطته المخادعة من وجهها الآخر أي من جهة العودة إلى العمل في الغد وجدت أنها غير أكيدة من رغبتها في نجاح الخطة أو فشلها.

لقد أيقنت بالأمس بعدما شاهدت وجه السيدة نورتنغاتون أنها لن تترك ميرا في «بيغ هاوس» مهما كان السبب. ولكن من الواضح أن السيدة نورتنغاتون مصممة على الدفاع عن حفيدتها ولو بحياتها وأضف إلى هذا أن روزي سومرز جوهرة يمكن الوثوق بها للعناية بميرا. ولو تركت أستيرا هذه الجوانب واتجهت إلى الأمور العملية لأدركت أنها إن لم تظهر غداً في مكاتب شركة الهندسة

فقد تضطر للبحث عن وظيفة أخرى..

دخلت إلى الحمام مشوشة الفكر ثم لمَّا اغتسلت ارتدت فستاناً قطنياً نظيفاً، وكانت في الطريق إلى غرفة ميرا عندما أدركت أنها لن تستطيع إلا الانتظار لترى، بل ربما لا يكون لها القرار بشأن تركها. فقد قال زاكاري إن أمه ستصرّ على بقاء ميرا.. ولكن أستيرا لم تر حتى الآن دليلاً على إصرار السيدة على أي شيء إلا على زواجها وزاكاري.

كانت روزي تغسل الطفلة عندما دخلت أستيرا، فرفعت رأسها تقول:

- أليس حجمها مناسباً لعمرها؟

- أرى وزنها زائداً عن الحد.

- لا.. أبداً إنها ممتلئة الجسم، ورثت هذا عن عائلة شالفونت.

- السيدة نورتنغاتون من عائلة شالفونت أليس كذلك؟

- هذا صحيح.. أنا لم أطعم هذه الشابة في السادسة.

- لم تأكل؟

هذا أمر مستحيل، لأنها كانت ستمزق الجو بصراخها.

- دخلت السيدة نورتنغاتون وجلست حيث تجلسين الآن، وقالت إنها لا تهتم بما سأفعل، فدورها هي الآن في إطعام حفيدتها.

تمتمت أستيرا بذهول: «في السادسة صباحاً».

- بل أبكر من ذلك، لا أظنها منذ ذاك الشجار مع نابغل قد ذاقت طعم النوم الهنيء.

فتشت أستيرا عن رد غير متطفل، وأخذت مثالاً تلك الشجارات التي كانت تشهدها بين غوليت ونابغل، ومدى تأثيرها

فيها. فقالت:

ـ آه، الخلافات العائلية.. قد تكدر المرء كثيراً.

ـ جئت ذلك اليوم لأسأل السيدة كاوتر شيئاً..

أبعدت باهتمام وحذر ميرا عن مغطسها ووضعتها في منشفة على حجرها:

ـ لم أستطع تجنب سماع أصواتهما المرتفعة وقد تبين لي مما سمعت أن الأمر حرب ذات اتجاهين.

وخاطبت ميرا: «من يعش كثيراً يرَ كثيراً أليس كذلك يا جميلتي؟»

أعطى ذلك التعبير أستيرا فرصة لتدبر دقة الحديث. سألت روزي عن اجتماعات الجمعية النسائية، وكان لها فرصة أن تحمل ميرا لنفسها وتدللها بعدما ارتدت ملابسها وأصبحت رائحتها رائعة..

حين بدأت روزي بتنظيف المكان وترتيبه، فكرت أستيرا في تولي الأمر بنفسها.

ـ سأنوب عنك بهذا، يمكنني تنظيف المكان والعناية بميرا، ريثما تذهبين لتناول الفطور.

ـ رباه! تناولت الفطور منذ زمن بعيد.. ولكنهم لن يقدموا الفطور قبل حضورك.

كرهت أستيرا تناول الطعام مع زاكاري وأمه. ولكن حال دون هذه الكراهية، الكياسة التي تدين بها لمضيفتها.. فمهما كانت السيدة متزمتة فما من شك في أنها تضع أهمية كبرى للتصرفات اللائقة.

ـ من الأفضل أن أنزل إذن.

وجدت أستيرا غرفة الفطور بدون مشقة وهناك كان زاكاري

وأمه بانتظارها:

ـ صباح الخير سيدة نورتنغاتون، آسفة على تأخري.

ـ صباح الخير أستيرا. خلتك ستستمتعين بالاسترخاء لذا طلبت إلى زاكاري ألا يذكر لك موعد الفطور.

لم تعرف أستيرا ما إذا كان ما تقوله إشارة إلى لطف السيدة أم رغبتها في عدم انضمامها إليهما. وجدت أن هذه الأفكار جميعها قد توارت حين تقدم زاكاري ليقف قربها. خفق قلبها بشدة ولكن لماذا؟ ربما السبب ظنها بأنه ما اقترب منها إلا ليعانقها كما حدث في نهاية الأمسية السابقة.

استعدت لتركله على عظم ساقه ونظرت إليه نظرة عداء، بحيث أدرك ما تفكر فيه، وقال بأنزان: «عزيزتي!».

وأتم ما كان ينويه.. سحب لها بكل كياسة كرسياً وانتظر حتى جلست عليه ثم عاد إلى مكانه.

مضت وجبة الفطور أفضل مما توقعت.. سألت السيدة نورتنغاتون: هل نمت نوماً عميقاً؟

ردت بأدب وهي تضع المربى على قطعة التوست:

ـ نعم.. شكراً لك.

ـ ألم تجدي صعوبة في العودة إلى النوم بعد زيارة الطفلة في ساعات الفجر الأولى؟

عرفت أستيرا أن روزي أخبرتها بهذا. قاطعهما زاكاري: «هل تصدت مخدعها لتتفقديها؟»

ارتشفت قليلاً من القهوة وردت: «بل قصدت المكان لأطعمها».

ـ تطعمينها!

قاطعته أمه:

ـ حقاً زاكاري! ألا تعرف أن الأطفال يتناولون الحليب مرة كل أربع ساعات؟

تمتم وكأنه يجد صعوبة في التصديق:

ـ يا إلهي!

وجدت أستيرا نفسها تتبادل نظرات الاعتداد بالنفس مع أمه.. وقالت الأم له باعتزاز:

ـ لقد ذهبت أستيرا لتعدّ لميرا الرضعة الثانية صباحاً.

قالت أستيرا: «ولكن لم يكن هناك من داع إلى ذلك لأنني وجدت روزي قد شرعت بإعدادها ولذلك عدت إلى النوم».

ابتسم زاكاري مع الروتين قائلاً: «لتستيقظي في السادسة؟».

ـ طلبت مني روزي أن أثق بها.. على أي حال..

والتفتت إلى السيدة نورتنغاتون، لتضيف:

ـ رغم اتساع الغرفة إلا أنها كانت ستزدحم بوجود أربعة أشخاص فيها.

تعقبت عينا زاكاري نظرتها فشاهد في آن واحد ذهول العجوز التي افتضح أمرها وشاهد كذلك تأثرها حين سألت:

ـ وهل يمنع القانون الجدة من إرضاع حفيدتها في السادسة؟

غادرت أستيرا غرفة الطعام وهي تشعر بأن السيدة نورتنغاتون ليست سيئة على أي حال.. أحست أنها بدأت تشعر بالدفء نحو والدة زاكاري، فعادت إلى مخدع الطفلة.. كانت قد بدأت تراها امرأة حساسة ولكن ذلك لم يجعلها تنكر تزمتها ورجعية أفكارها، بل جعلها تدرك أنها امرأة تتأذى وتتألم بشدة، خاصة من تصرفات ابنها الأصغر.

قال لها زاكاري نفسه إن أمه تغيرت منذ ذلك الشجار. وقد رأتها اليوم على المائدة تبتسم، فهل ميرا المسؤولة عن إذابة بعض

الجليد في هذه السيدة؟ هل وجود ميرا جعلها تجد بديلاً عن التفكير في نابغل؟

كانت السيدة نورتنغاتون تؤمن بأن ميرا هي ابنة زاكاري، إلا أنها حفيدتها على أي حال. هل من الخطأ ترك الطفلة معها فترة قصيرة؟ فهل لوجود الطفلة أثر في اندمال جرحها وهل بإمكان أستيرا التمسك بوظيفتها حتى تعود غولييت.. ولكن، ألديها خيار آخر؟

بدأ رأسها يدور لذا شعرت بالسرور عندما وصلت السيدة كاوتر لتقول لها إنه آن وقت الغداء وكانت في حال كئيبة عندما نزلت الدرج فمن المهم اتخاذ قرار بشأن ترك ميرا هنا ولكن السيدة رغم اعتقاد زاكاري بأنها ستقترح إبقاءها هنا لم تنفوه بكلمة حتى الآن.

عندما دخلت إلى غرفة الطعام، وجدت أنها سبقت زاكاري. كانت السيدة وحدها هناك، فقالت:

ـ يمكنك أستيرا أن تجلسي حيث جلست البارحة. سيصل زاكاري بعد قليل.

تمتمت أستيرا: «شكراً لك».

قعدت في المكان الذي أشارت إليه مضيفتها ولكن ويا للغرابة لم يبدُ لها هو نفسه في غياب زاكاري!

كانتا جالستين عندما وصل بعد دقيقتين أو ثلاث وكانت حتى ذلك الوقت قد أبعدت عن رأسها الأفكار السخيفة التي توحي إليها بأن فيه شيئاً مميزاً. فالمسألة كل المسألة أنها غير مستعدة حتى الآن للإجابة عن الأسئلة التي قد تطرحها السيدة.

سألها زاكاري: «هل كان صباحك ممتعاً؟»

ـ شعرت بأنني في عطلة ذلك أنني لم أفعل شيئاً.

التقطت ملعقتها لتتناول حساءها. انهمكت السيدة إلى الحديث:

ـ الأطفال أكثر الخلق استهلاكاً للوقت أليس كذلك؟

ردت أستيرا: «طبعاً».

لم تفتها نظرة التفكير في عيني السيدة. حالما أنهوا الحساء دخلت السيدة كاوتر حاملة الطبق الرئيسي فظنت أستيرا أن الموضوع سينسى.

خرجت السيدة كاوتر، وشرع زاكاري يقطع اللحم حين سألت أمه فجأة:

ـ كيف ستتدبرين أمرك أستيرا؟

تجاوزت السؤال لأن زاكاري كان يقدم لها حصتها من اللحم المقطع ويحذرها من حرارته:

ـ شكراً لك زاكاري.

ولكن السيدة نورتنغاتون أصلب من أن تُصرف بسهولة:

ـ كنت أتساءل.. أستيرا. كيف ستتدبرين أمرك بشأن عملك في الوقت الذي يتوجب عليك رعاية الطفلة التي تحتاج الحب في هذه المرحلة من عمرها؟

ـ قد يكون الأمر صعباً.

وتساءلت بسخط لماذا لا يتدخل زاكاري الآن وهو من اعتاد على التدخل بكل كبيرة وصغيرة.

قالت السيدة بعناد: «يجب ألا تهمل الطفلة».

قاطعها زاكاري، وهذا ما أراح بال أستيرا: «هي لبست بمهملة»

ردت الأم بدون حماس:

ـ رأيت هذا بنفسي.. كما رأيت كذلك أن حفيدتي تلقى

العناية الجيدة، والفضل لا يعود إليك زاكاري!

تذمر زاكاري: «طالما كنت سليطة اللسان وخبيثة!»

ردت عليه بذكاء: «الأمر لا يحتاج إلى الخبث لمعرفة جهلك المطبق بشأن الأطفال. أوضح لي ما قلته ساعة الفطور أنك تنام طوال الليل وتترك هذه الفتاة المسكينة تنهض من الفراش لتطعم وتعتني بطفلة لا تقع مسؤوليتها على عاتقها هي وحدها بل على عاتقك أنت أيضاً».

قالت أستيرا مقاطعة السيدة:

ـ في الواقع سيدة نورتنغاتون أنا وزاكاري لا نعيش معاً.. لذا من الطبيعي ألا يعرف شيئاً عن ميرا..

قاطعتها بحدة واستنكار مضاعف:

ـ أتقولين إنك تحملين مسؤولية الطفلة وحدك؟

آه، يا الله! كانت تظن أن هذه المعلومات ستسعد السيدة العجوز، ولكن العكس ما حدث.

أحست بالامتنان حين استحوذ زاكاري على اهتمام أمه، ليضع دقائق حين قال لها:

ـ أعترف أنني لم أساعدها كثيراً. ولكنني سأساعدها. أستيرا تتوق للعودة إلى العمل غداً، ولكن من تريد أن يعتني بالطفلة غير موجود الآن.. وهكذا سأبذل جهدي لمساعدتها في إيجاد حاضنة مؤقتة للطفلة..

استولى الرعب على وجه السيدة نورتنغاتون التي قاطعت ابنها بحدة:

ـ حاضنة! أتريد دفع الطفلة إلى أحضان امرأة غريبة حتى تجد لها المربية المحترفة!

ذهلت أستيرا مما قالته السيدة ولكنها انتفضت عندما أجاب

أمه:

- إن الكثير من الناس يعتمدون على الحاضنات وقد يضيعون بدونهن. كما أن أستيرا ستضيع إن لم تجد من يعتني بالطفلة من الثامنة صباحاً حتى السادسة أو السابعة مساء.

وظنّ أن لا حاجة للمزيد من الشرح وأمسك بطبق الطعام سائلاً:

- المزيد من البطاطا أمي؟

بدا أن السيدة نورتنغاتون قد فقدت شهيتها. ولم تكن أستيرا أفضل حالاً.. لكن زاكاري الذي لم تتأثر شهيته أكل ما يكفي.

كانت الحلوى تقدم عندما كسرت السيدة نورتنغاتون الصمت ولكنها لم توجه كلامها إلى ابنها، بل إلى أستيرا، قالت بطريقتها الجافة المألوفة:

- كنت أفكر.. و.. حسناً.. بصراحة أستيرا لا أشعر بالراحة لأن حفيدتي ستبقى مع حاضنة كما أخشى أن تصاب الصغيرة بالرشح.

لم تفكر أستيرا في هذا الأمر قط.. كما لم تفكر ما إذا كان ممنوع على الحاضنات العناية بالمرضى من الأطفال. وأجابت صادقة:

- وأنا لن أشعر أيضاً بالراحة كذلك!

قالت المرأة بسرعة وخفة:

- إذن.. أقترح أن تتخلي عن هذا الهراء وتتركيها معي!

تمتمت متلعثمة: «أنا..».

أحست بالرهبة.. لقد تلاعب زاكاري بعواطف أمه. ولقد ساعدته في هذا! أحست بالسقم واستعدت للاعتراف بكل شيء:

- سيدة نورتنغاتون..

قاطعتها بسرعة وكأنها خائفة من رفض عرضها:

- سيكون هذا فقط خلال أيام الأسبوع.. بإمكان زاكاري اصطحابك إلى منزلنا هنا يوم الجمعة بعد انتهاء عملك.. وبما أنك لن تريها في عطلة الأسبوع قبل المساء فسأوفر عليك باحتضانها عناء تحضيرها، وتحضير نفسك في الصباح.

كانت ملهوفة إلى قبول أستيرا عرضها ولكن حسابة أستيرا جعلتها تتشوش.. نظرت بعجز إلى زاكاري طلباً للمساعدة. فسأل أمه:

- ألن يجهدك الأمر؟

ردت ساخرة: لن يتعبني ذلك أبداً خاصة مع وجود نساء في المنزل مجنونات بحب الأطفال. ولكننا لن نذللها كثيراً.. وسأكون محظوظة إن حصلت على نظرة إليها.. في الواقع، ما علي إلا الهمس لروزي حتى تطير إلى منزلها لتوضب حقيبتها بغية الانتقال إلى المنزل.

سارعت أستيرا تقول: «سيكون هذا لفترة قصيرة».

- إذن.. أنت موافقة؟

نظرت أستيرا إلى زاكاري. وقابل نظرتها بصمت ثم، وكأنما بدون وعي هز رأسه بالموافقة، فأعادت نظرتها إلى السيدة نورتنغاتون مع أنها تذكرت قوله: أنت تدركين أننا دوننا أقرباءها نستطيع سلبك جميع الحقوق. لكنها أدركت كذلك أنها لن تستطيع أن ترد إلا بـ «نعم». لقد حدّد لها زاكاري نورتنغاتون خياراتها.

عندما تبادلوا الوداع مساء كانت روح الجميع المعنوية مرتفعة إلا روح أستيرا. كانت روزي تحمل ميرا، وتقف قرب الباب مبتسمة ابتسامة عريضة كما أن الابتسامة وجدت إلى ثغر السيدة

نورتنغاتون سبيلاً وبدا زاكاري وهو يودع أمه مسروراً بنفسه.

وعدت السيدة نورتنغاتون أستيرا قائلة:

- ستكون ميرا على خير ما يرام معنا.. أعدك. ولسوف ترينها يوم الجمعة.

لا ريب أن العجوز لاحظت عدم رضى أستيرا فتقدمت لتصافحها، وردت أستيرا: «طبعاً».

ثم اتجهت لتودع روزي وتقبل ميرا، قبل التوجه بسرعة نحو السيارة.

لم تعرف إن كان زاكاري قد شعر بمزاجها المسيطر عليها ولم تأبه. ولكن بعد مسير نصف ساعة وهي المهلة التي منحها إياها حتى تستطيع التغلب على مشاعرها في الافتراق عن ميرا.. نظر إليها نظرة جانبية خالية من المشاعر وسألها:

- أتشعرين بالتعاسة لسبب ما أستيرا؟

ردت عليه بحدة:

- بل تغمرني البهجة لكل شيء.. من أين تريد أن أبدأ؟

- من البداية. مع أنني قد لا أجد ما يدفعك إلى التذمر. أردت البحث عمن يعتني بالطفلة وحصلت على مبتغاك. قلقت أشد القلق بسبب عدم قدرتك على الذهاب إلى عملك غداً وقد زال هذا القلق عنك. إذن لماذا الاكتئاب؟

لم تحب أستيرا منطقه، وبناءً على ما سمعته الآن وجدت أن تذمرها لن يكون إلا حماقة، فهو مصيب في قوله. كانت بأمس الحاجة إلى من يرعى ميرا لتستطيع الذهاب إلى عملها، ولقد انتزع زاكاري هذا القلق عنها مع أنها لم تحب الطريقة التي نفذ بها ذلك. قالت:

- إن كنت مكتئبة، فالسبب هو كرهي للطريقة التي تستغل بها

الناس.. كنت قلقاً على أمك، أكثر من قلقك على ميرا لكنك لم تتوقف عند هذا بل دفعت أمك بطرق ملتوية إلى أن تطلب بنفسها رعاية ميرا. وقد وجدت أنه لم يكن لي خيار سوى أن أشاركك!

رد بيرود: «يا الله! أهذا ما كان يعتمل بنفسك إذن؟ ألم أذكر أمامك أن أمي ستتطوع للاحتفاظ بالطفلة؟ ولا أذكر أنك عارضت المسألة كما لا أنظر إلى تصرفاتي اليوم على أنها نوع من الاستغلال».

ردت بغضب: «ولن تنظر إليها أبداً على أنها استغلال».

تجاهل تعليقها: «بعد قضاء بعض الوقت مع أمي هذا الصباح تبين لي أن ميرا فالنتينا نورتنغاتون هي مركز اهتمامها.. وقد ساعدتها في اتخاذ قرار محبب إلى قلبها».

أشاحت أستيرا وجهها عنه ونظرت إلى الخارج لتفكر في ما قاله.. كانت قد شاهدت مثالاً عن لهفة أمه فهي لم تحاول فقط الالتفاف عليهما حين رأت أن ذلك مناسباً، بل حاولت دفعهما إلى مذبح الكنيسة، ودعت الكاهن للعشاء في سبيل هذه الغاية.

لذلك، عرفت أستيرا أن من غير المحتمل وجود ما لا تقوله أو تفعله السيدة نورتنغاتون، لو أحست برغبة فيه. فجأة تذكرت أنها لاحظت مدى رهافة حس السيدة بعد الفطور مباشرة. فالتفتت إليه تسأله:

- أتعني أن أمك أرادت أن تترك ميرا، ولكن لم تكن تعرف كيف تطلب هذا؟

هز رأسه: «كانت على أتم الاستعداد للتمسك بأقل فرصة متاحة لها. كنت محقة بشأن تعلق الجدات بالحفيدات».

- وهل لاحظت تغيراً في أمك؟

- ما زلت مصدوماً.. أظنها فكرت مرتين قبل استخدام روزي

للعناية بي أو بنايغل.. مع ذلك، اليوم شهدت كيف رفضت أن تستخدم إلا أفضل المربيات المحترفات لحفيدتها.

ابتسمت أستيرا، ولكن ابتسامتها سرعان ما تلاشت. لدى زاكاري رد على كل شيء، ولكن هذا لم يجعل الخدعة التي قام بها تنسجم مع روح الصدق لديها.

لاحظ هذا، حين التفت بعد عشر دقائق من الصمت ليقول: «أما زلت غير سعيدة؟»

ـ وكيف أكون سعيدة؟ من الإجحاف ألا تعرف أمك أن ميرا ابنة نايغل.. في الواقع لا يعجبني ما أفعله.

ـ أتظنين أن ما يحدث يعجبني؟ صدقيني أقدّر لك تعاونك وصدقك الذي رأيته فيك، ولكنني شرحت لك سبب اضطراري لهذه الطريقة، ولقد نجحت أيضاً. وأمي اليوم بدت أسعد حالاً مما مضى.

ـ أجل.. لقد.. ابتسمت.

ضحك زاكاري: «سأسعى دائماً إلى زرع الابتسامة على شفتيها، ثم سأقول لها إن السيدة الصغيرة المسؤولة عن ابتساماتها هي حفيدتها التي هي ابنة نايغل لا ابنتي».

صاحت بذعر فجائي: «ليس قبل عودة غولي».

سأل بلطف: «ألا تعرفين موقع قدمك؟ أنت ممزقة بياس بين أن تعرف أمي الحقيقة وبين أن تتخذ إجراءات تحرمك من حقك في الوصاية على الطفلة».

مد يده يربت يدها ليطمئنها، وأجابت:

ـ هذا تقريباً يلخص كل شيء.

ـ لا تقلقي.. أنا وأنت في هذه الورطة معاً. ولن أقوم بحركة بدون استشارتك أولاً.

لم تكن أستيرا واثقة بما تشعر «مع» زاكاري، فهو رجل لا يعرف قراره. رجل تعرف أنه أقسى من الجلمود، وإلا لما استطاع تدمير حياة أخيه العملية بتلك الطريقة. ولكن كيف لرجل قاسي الفؤاد أن يهتم هكذا بالمحنة الداخلية التي تمر بها أمه، هذه المحنة التي تجعله مستعداً للقيام بأي شيء في سبيل راحة بال أمه. ربما أقل ما يقال فيه إنه رجل يحيّر العقول.

عانت أستيرا المزيد من التشوش حين وصلا إلى لندن.. شعرت بأنها مدينة لغولي في الذهاب لرؤية ميرا في نهاية الأسبوع.. ولكنها لم تجد حتى الآن طريقة لتسأله عن هذا، حين كان يحمل حقيبتها بيده، ويرافقها إلى بابها.. ووفر عليها الإزعاج، إذ قال وهو يعطيها الحقيبة: «أزورك مساء الجمعة».

وفيما هي تهم بفتح ثغرها، لمع بريق شيطاني في عينيه وكأنما حركتها هذه كانت أقوى من قدرته على المقاومة فانحنى يقول:

ـ الآباء بالوكالة يتبادلون الوداع هكذا.

ثم ابتسم بعدما عانقها. أما هي فوقفت دهشة وقد ازدادت تشوشاً وحيرة.

• • •

٦ ـ لا يعتذر أبداً

بدت الشقة فارغة بدون ميرا. عندما عادت أستيرا من العمل مساء الاثنين شعرت بالقلق وأدركت ساعتئذ مدى تعلقها بالطفلة.

شغلت جزءاً من المساء بالتنظيف. وما إن حلت التاسعة حتى بدت الشقة أفضل حالاً، وكان عليها أن تعترف أنها لم تستطع إخراج القلق من نفسها.

على أمل أن تجد الاستقرار في نفسها، استسلمت إلى حث يدفعها للاتصال «بالبيغ هاوس» بعد التاسعة بقليل. لم تكن ترغب في محادثة السيدة نورتنغاتون ولكن من الطبيعي أن تتصل للسؤال عن أحوال الطفلة.

اكتشفت أستيرا أن حظها كان عاثراً ذلك أن عاملة الاستعلامات أعلمتها أن رقم هاتف السيدة نورتنغاتون غير مدرج في الدليل.

ـ أواثقة أنت؟

ـ كل الثقة. آسفة عزيزتي.

ابتعدت أستيرا عن الهاتف وأطلقت تنهيدة. وفكرت في الاتصال بزاكاري لتسأله عن رقم هاتف أمه.. ولكنها شعرت بالتردد في الاتصال به وكان السبب عناقه ذاك.

ولأنها أرادت إيجاد ما يلهيها قررت أن ترد على رسالة صاحب المنزل.. وذهبت إلى النوم بعدما وضعت الرد في حقيبة يدها استعداداً لإرساله في الصباح.

وكان ردها على الرسالة صادقاً فقد قالت لصاحب المنزل إن الطفلة كانت عندها فعلاً أما الآن فهي في الريف عند ذويها.

ظلت معكرة المزاج في الصباح التالي.. وفي تمام العاشرة والنصف أدركت أنها لن تستقر حتى تتحدث إلى السيدة نورتنغاتون.. مدت يدها إلى الهاتف.

قال صوت تتذكره جيداً: «سكرتيرة السيد نورتنغاتون».

ـ صباح الخير آنسة إيفوري.. أود التحدث إلى السيد نورتنغاتون.

وقبل أن تتمكن السكرتيرة من وضع الحاجز، أردفت:

ـ أنا أستيرا موفيت.. لربما تذكرين أنني جئت إلى المكتب في الأسبوع الماضي مع ابنة أخ السيد نورتنغاتون.

ـ أذكر.. لحظة من فضلك!

ـ أستيرا؟

ـ زاكاري.

أبعدت فكرة أن له تأثيراً فيها.. وأردفت بصوت بارد:

ـ أحتاج إلى رقم هاتف أمك. إنه غير مدون في الدليل.

ـ ولماذا تحتاجين إليه؟ قلت لك إنني سأقول لها الحقيقة بنفسي في الوقت المناسب. ولقد حذرتك..

قاطعته بغضب: «لا تهددني! أريد الاتصال لأطمئن على ميرا..!»

صاح: «وكيف ستكون؟ إنها بخير».

يا للخنزير المتعجرف!

- وكيفما تعرف أنها بخير؟

- من له نصف عقل يدرك أن طفلة تلقى رعاية امرأتين على الأقل لا بدّ أن تكون بخير.

- شكراً لك.. والآن أعط من لها نصف عقل ذلك الرقم!

- احملي كلامي على محمل الجد.

- اسمع أنا لا آبه البتة بكلامك. لقد توليت مسؤولية ميرا مدة أسابيع طويلة، وأنا لا أشتاق إليها فقط بل بغض النظر عن تهديداتك ما زلت الوصية عليها لقد عينتني أمها وصية عليها، ولم تعيّن أمك.. وأنا..

لم يتركها تنهي كلامها بل تحداها بقسوة:

- وهل ستقبل ادعاءك أية محكمة؟

شهقت: «ماذا تعني؟»

- ما قلته بالضبط. لم أشأ تهديدك بل وددت كسب تعاونك في أمور شرحتها لك. أما الآن إذا وجدت في كلامي تهديداً فأقول: ما من قاض سيمنحك الوصاية القانونية لمجرد كلام مزعوم غير مكتوب من امرأة هجرت طفلها.

صاحت: «أيها الشيطان».

تابع بلا اكتراث: «ولكن الأمر لن يصل إلى هذه الدرّجة، أما بالنسبة لاشتياقك إلى الطفلة فأراه أمراً جيداً من وجهة نظرك».

- كيف تستطيع قول هذا؟

- سمعت الضجيج الذي تستطيع تلك المخلوقة الصغيرة افتعاله. لا شك أنّ وجودها عندك قد دمر حياتك مؤخراً خاصة العاطفية منها.

يا الله! ما هذا الرجل! وصفقت السماعة في وجهه.. فمن الواضح أنه يؤمن بأنها قبل وصول ميرا، كانت عائشة على مستوى

رفيع في شقتها.

عندما عادت إلى المنزل ذلك المساء، كان الغيظ ما يزال يستعر في نفسها. إنه يعتقد أنها تقيم علاقات متعددة، وأن بكاء ميرا في أوقات ليست في محلها قد أفسد عليها نمط حياتها.. إن جملته تلك «اشتياقك إليها أمر جيد» تشير إلى أنها وجدت الحرية لإدراك ما فاتها.

لم يكن غيظها قد برد عندما سمعت طرقاً على الباب حوالي الثامنة فتقدمت لتفتح، وكادت تقع إلى الوراء.. إنه هو!

قبل أن يذكر سبب قدومه قالت:

- لقد نسيت أن أقول لك كلمة «وداعاً» في اتصالي الهاتفي. «وداعاً».

وصفقت الباب في وجهه. لكن قدمه كانت قد أصبحت داخل الشقة قبل أن تفعل، وقبل أن تدرك تبع جسده قدمه. وقال معلقاً وهو يقفل الباب:

- ما زلت متسرعة. أهناك فرصة لفنجان قهوة؟

لولا ارتجافها من هول جرأته لذكرت له وصفاً دقيقاً عن مقهى يقع على مقربة من شقتها. ومع ذلك، لم تتحرك لتضع الإبريق على النار، بل صاحت بغضب حاد:

- إن جئت معتذراً هدرت وقتك.

- معتذراً؟

وكان أن ازدادت غضباً فهو لا يرى أن هناك ما يستوجب الاعتذار عنه. نظر إلى الشقة النظيفة المرتبة وقال:

- مع أنه ما يزال جحر فأرة، إلا أن المكان يبدو أكبر مما كان.

ازداد غليانها عند وصفه شقتها بجحر فأرة:

ـ عشرة على عشرة لجودة ملاحظتك. لقد وضعت أغراض ميرا جانباً في الوقت الحاضر.

أزعجتها ابتسامته وسألها بلطف متعمد:

ـ أتظنين أن غولييت تريدها؟

ـ طبعاً تريدها!

استولى عليها الذعر لأنها أدركت أن الامتلاك تسعة أعشار القانون! أكملت تستبق أية فكرة لعائلة نورتنغاتون عن جهلها:

ـ وما من قاضٍ قد ينكر أحقية غولييت بطفلتها خاصة وأن والدها لم يهتم قط بما يحصل لها.

ـ ربما أنت على حق، مع أنني لا أعتقد أن أي قاضٍ قد يصدر حكماً لصالح أم مستهترة.

ـ مستهترة؟ غولييت ليست مستهترة!

هز كتفيه: «كما تشائين.. ولكن، من الصعب القول إن ترك ابنتها مع صديقة تصرف سليم».

ـ ليست غولييت بمستهترة.. وهي ما كانت لتتخلى عن ابنتها، لولا الضربة القاضية التي حلت على رأسها بسبب نابغل والتي دفعتها إلى الفرار مجدداً.

ـ مجدداً؟ وهل فعلت مثل هذا من قبل؟

يا الله! أليس هناك من هو أسرع منه ملاحظة؟ لم تكن ترغب في صنع القهوة له ولكن حاجتها اليائسة لفرصة تنفس، دفعتها إلى المطبخ الصغير.

ـ كيف تحب قهوتك؟

لحق بها إلى المطبخ: «بدون حليب».

وقف إلى جانبها وهي تضع الإبريق ليغلي وهذا ما أزعجها. قاومت لتستعيد رباطة جأشها فالمطبخ يصبح ضيقاً بوجود

شخصين فيه.

ـ مع السكر؟

ـ لا.

فجأة مدّ يده إلى وجهها فتقفز قلبها وتراجعت بسرعة.. ابتسم ولكنه عندما مدّ يده لتناولها وعاء الين كان على فمه هذه المرة لمسة تسلية.

قالت بجفاء، وقد أحست فجأة بضرورة إبعاده عنها.

ـ سأحمل القهوة إلى غرفة الجلوس، فهلا ذهبت إليها.

حين انضمت إليه، تناول منها الصينية ووضعها على طاولة صغيرة فقعدت متمتمة: «شكراً لك».

ذكرها، وهو يجلس قبالتها بالموضوع الذي توقفا عنده:

ـ كنت تخبرينني بشيء عن ميل غولييت للهرب في أوقات الشدة.

حارت بين أن تتوجه إليه طلباً لتفهم حالة غولييت، وبين خوفها من التفوه بأكثر مما يلزم. بدأت تقول ببطء:

ـ عشت أنا وغولييت هنا منذ أربعة أعوام، ولم تكن قط متكدرة إلى درجة الرحيل. ولكن عندما اتصلت بأخيك من مكتب تسجيل الولادات، وكلمها بخشونة، أحست بأنها مضطرة للهرب.

ـ وهل اتصلت بك؟

ـ اتصلت بي بعدما فرت مباشرة لتطلب مني رعاية ميرا، وقالت إنها ستحتاج إلى ابنتها لدى عودتها.

كانت عيناه مستقرتين على عينيها:

ـ وكان هذا الاتصال الوحيد بينكما؟

اعترفت بالحقيقة: «لم تتصل ثانية».

إن غولييت تعرف أستيرا معرفة وثيقة وهذا يعني أنها قادرة على الوثوق بصديقتها أشد الثقة.

قال زاكاري:

- تبدين متأكدة.. وهل اتصال واحد يجعلك واثقة إلى هذه الدرجة؟

ردت بسرعة لتؤكد له مدى أهمية ميرا عند أمها.

- لم تكن تتصل من قبل.

أدركت، بآهة داخلية، أنها أكدت له أن من عادة غولييت الفرار. يا للشيطان الماكر! لكنها تأخرت في رؤية الفخ الذي نصبه لها، وسارت إليه بكل غباء، فأكملت وكأنها تدافع عنها.

- حدثتك عن زوج أبيها.

- أكان يضربها؟

- لم يضع قط إصبعاً عليها. ولكن كان لديه طرق أخرى للعقاب، فقد كان كثير الشكوى يسخر من كل ما تفعله وكان لسانه سوطاً قاطعاً، وقد دفعها هذا اللسان السليط إلى الفرار وحالما كانت تسترد توازنها كانت تعود قوية لتتحمل ما يأتيها في المرة القادمة.

- ألم يكن لأمها قول في ما يحدث؟

- أظنها حاولت معارضته في البداية ولكن عندما طفق يعاملها بالطريقة نفسها، وجدت أمها من الأسهل أن تصمت. وكما ترى إن نايغل تلقى دلالاً منقطع النظير في حين كان العكس نصيب غولييت.

احتسى زاكاري قليلاً من قهوته، غير أنها لم تستطع معرفة كنه أفكاره لأنه بارع في إخفاء مشاعره، إنها لا ترغب في الوقوع في فخ جديد ينصبه ولذا قررت إبعاد الحديث عن غولييت نهائياً

ووجدت أن الهجوم خير دفاع.

انتظرت حتى وضع فنجان قهوته من يده، ثم قبل أن يقول شيئاً، قالت ببرود:

- بمناسبة الحديث عن الدلال لقد أظهرت الكثير منه.. خاصة وقد أعدت «البيغ هاوس» إلى أمك؟

ارتفع حاجبه الأيمن قليلاً وظل يتفرس فيها، أحست أنه يشك في أن تنظر إلى تصرفه بهذه الطريقة:

- لا أكاد أسميه دلالاً بل شعوراً بالواجب تجاه أمي التي تحتاج إلى الأمن والسعادة.

سرعان ما تضاءل ميلها إلى الهجوم فزاكاري ابن يحس بالواجب تجاه أمه ويحترم ذكرى أبيه.. لذا كان مستعداً إلى المضي بعيداً في سبيل هذا الهدف. ولكنها تذكرت ما فعله بأخيه الذي كان يتوجب عليه مساعدته بدل طرده.

- من المؤسف أنك لم تقم بواجبك تجاه أخيك.

بدا زاكاري دهشاً فهي رغم معرفتها الوثيقة بتصرفات نايغل الخسيسة تدافع عنه ولأنه رجل يسيطر دوماً على نفسه أظهر شيئاً من التسلية عندما قال:

- طالما أخرجت أخي من ورطة إثر أخرى وذلك منذ أن بدأ بسرقة التفاح من بستان الجيران.

- ولهذا السبب، طبعاً، أظهرت لنفسك أنك بارع في اقتلاعه من مؤسسة نورتنغاتون هولدنغ بعدما أعيد تنظيمها.. واقتلعته من مستقبله العملي.

حذرتها نقطية سوداء من المضي في هذا الموضوع ولكنها لا تخشاه. قال لها: «فاتني هذا حين أعدنا التنظيم. ولكن إن قال لك إنني طردته أثناء قيامي بتنظيم المؤسسة فهذا صحيح».

- لم يقل لي . . قال لغو . .

فجأة صمتت. لو حاول زاكاري الدفاع عما فعله لما صدقت إلا ما سمعته من غوليت. ولكنه أكد أنه رماه خارجاً . . فجأة بدأت أستيرا تتساءل عن أمر جديد. زاكاري قاس ومخادع وقذر . ولكنه شريف يعرف واجباته . . سألت بسرعة:

- أنت لم تعد التنظيم وما حذفت شيئاً . . صحيح؟

- إن قال نايغل إنني فعلت، فقد فعلت.

أدركت أنه لن يجيب عن سؤالها فقالت ببطء: «لا أصدق أنك فعلت».

توقفت قليلاً ثم أضافت:

- الورطة التي زج نايغل نفسه بها كانت ورطة عظيمة.

- أتمنحينني صك البراءة؟

- آه، أنت خنزير، بارد، ماكر، هذا ما أعرفه ولكنك تعرف واجباتك . .

فجأة شهقت أستيرا لأنها تذكرت فجأة أن غوليت قالت إن نايغل كان في مركز يخوله توقيع الشيكات . . فسألته ببطء:

- وهل اقترض إضافة إلى مال أمك مالاً من نورتنغاتون هولدنغ؟

نظر إليها زاكاري لبرهة بحدة . . ثم تمتم: «لم أعتبرك قط امرأة ذات نصف عقل».

ترك كرسيه واتجه إلى الباب . . فقالت أستيرا:

- لقد اختلس أموال الشركة!

وتركت مقعدها أيضاً لترافقه إلى الباب. كان يبعد خطوة عندما توقف ينظر إليها متمتماً:

- سمّي نايغل ما فعله قرضاً، ولكن أصحاب الأسهم

استخدموا تعبيرك ووجدتني عاجزاً عن تصحيح غلطته.

فجأة، أدركت مدى حبه لشقيقه فقالت:

- آه، زاكاري . . أنا آسفة.

ابتسم، ومد يده يربت أنفها: «لا تعتذري».

- أكنت غاضباً؟

تسمّرت عيناه على دفء نظرتها:

- كنت غاضباً حتى الجنون. وعندما اكتشفت ما فعل نايغل طردته . . غير عابىء بما سيصيبه.

تمتمت: «ما كان بمقدورك إلا هذا».

كانت بشرتها تقشعر من لمسة أصابعه على طرف أنفها وابتسم: «أنت لا تريدني الآن نذلاً؟».

ابتسمت له . . ولكن فيما كانت تبدي إعجابها بابتسامته أدركت أنها في خطر وقامت بجهد كبير لعكس الموقف . . فسألت بصوت لم تصدق أنه صادر عنها:

- آه . . لماذا زرتني . . على فكرة؟ لم تكن الزيارة بهدف احتساء فنجان قهوة.

نزعت ابتسامته كل دفاعاتها مجدداً.

- اتصلت بأمي لأسألها عن الطفلة المحبوبة.

ما من رجل قاس قد يتجشم عناء الاتصال ليطمئن على الطفلة من أجلها . . ولا يمكن لأي رجل غير حساس أن يزورها بنفسه، متجاهلاً الهاتف، ليقول لها شخصياً نتيجة سؤاله عن ميرا.

- أنت في غاية اللطف.

انحنى يلثم وجنتها:

- وأنت كذلك. بل سأقول أكثر من هذا: أنت لست لطيفة فحسب، بل أكثر من ذلك بكثير. إن رعايتك ابنة صديقتك

يجعلك امرأة مميزة.

عرفت أنه يهم بالخروج، فتقدمت منه أكثر.. لتفتح الباب له.. وقالت ضاحكة:

- نحن نواجه خطر أن نصبح مجتمع إعجاب مشترك.

- لا يمكننا تحمل هذا.

ومد يده إلى مقبض الباب في الوقت الذي مدت فيه يدها.. فانتشرت القشعريرة على طول ذراعها لأن أطراف أصابعهما تلامست، وجذبت يدها إلى الوراء، ولكن زاكاري أمسك يدها بيده، وظل يمسك بها. وعندما ظهر إحساس محدد في عينيه وجدت أنها لا تفهمه، قال بصوت أجش:

- اللعنة أستيرا.. يجب أن أعانقك..

لم يكن لديها ما تعترض عليه، بل الواقع أنها دنت منه بحيث تعلقت يداها بكتفيه وكان أن تعانقا.

أوقف العناق لينظر إلى عينيها.. فابتسمت بخجل. ولكنها لم تتراجع حين قرأ بسمتها على أنها تشجيع له.. ومر بهما الوقت وهي ضائعة برقة عناقه، ثم لم تلبث أن تأججت الرقة لتصبح رغبة.

تمتم زاكاري بخشونة: «أريدك يا عزيزتي».

ولأنها لم ترغب في أن يتوقف، ضغطت نفسها عليه لتشعر بدفئه أكثر فأكثر.

قال متمتماً: «بشرتك كالحرير».

تنهدت: «آه، زاكاري!»

ورغبت في أن تشعر بذراعيه حولها، فأغمضت عينيها تاركة نفسها عرضة للخطر بين يديه.

دفعتها غريزتها إلى عدم النظر إليه بشكل مباشر. ولم تعد

تدري ما إذا كانت ستكمل الطريق معه أم لا.

عندما أشاحت بنظرها، وقعت عيناها على الصورة التي أحضرتها له يوم لقائهما الأول ليرى أخاه مع غولييت.. كان ظهر الصورة إليها ولكن منظر نايغل وغولييت الغارقين بالحب كان مطبوعاً في رأسها.. في تلك اللحظة أدركت أن ما كانت على وشك الإقدام عليه هو أمر خاطىء.. كان عذر نايغل وغولييت الحب ولكنها لا تحب زاكاري ولا هو يحبها وأما الذي حرك مشاعرهما فالرغبة ليس إلا.

قالت وهي خائفة من أن تكون قد تأخرت كثيراً: «أنا..»

وخوفاً من ألا يستطيع زاكاري قول لا.. سارعت إلى النهوض عن الأريكة وهرعت كالبرق إلى غرفة نومها لتمالك شتات نفسها.

بعد دقائق انضم إليها زاكاري وفيما نصف تفكيرها يريد منها أن تعتذر، كان النصف الآخر يريد مهاجمته لأنه استطاع دفعها إلى كل هذه السخافة.

لم يكن يبدو على زاكاري الرضى وقد لاحظت ذلك من مجرد النظر إليه. قال وهو يتجه إلى الخارج ثم إلى الباب..

- سأقول لك هذا: «أنت فعلاً تعرفين كيف تتلاعبين».

ردت مرتجفة: «لم أقصد.. لم أعن..»

نظر إليها بكراهية، وصاح ساخراً:

- قرري ما تريدين حبيبتي هل ترغبين أن تعبثي في غرفة النوم أم لا ترغبين.

عرفت أنه استخدم «أن تعبثي في غرفة النوم» لبهيتها وهذا ما شعرت به فعلاً لذا لم تستطع الرد.

لكن، من السهل أن تلعب لعبة الإهانة.

- «العبث في غرفة النوم» كان يناسبني كثيراً.. حبيبي.. ولكنني في الوقت المناسب لمحت صورة أخيك وهو مع أفضل صديقاتي فأدركت أنني لو حملت منك لما كان تصرفك أفضل من تصرفه.

كان رده الوحيد صفق الباب، مع أنها قرأت ما يكفي من تعابير وجهه الغاضبة لتعرف أنه رحل ليمنع نفسه من خنقها.

بعد ساعة من التفكير المتشوش اتضح لها أن سبب غضبه ذاك هو تصنيفها له بأنه ونايغل في مرتبة واحدة.

ظنت أن تشوش أفكارها قد صفا قليلاً في الوقت الذي ذهبت فيه إلى الفراش، ولكنها أدركت أن أفكارها لم تصفُ كما اعتقدت فلسبب ما لم تستطع أن تفكر إلا في أن زاكاري نورتنغاتون هو نقيض أخيه.

* * *

٧ ـ خطوة نحو المجهول

عندما حلَّ يوم الجمعة، كانت أستيرا قد ذاقت ألواناً مختلفة من المشاعر. فهي ما تزال تفتقد ميرا، لكن غياب الطفلة أعطاها وقتاً أكثر من كافٍ للتفكير في زاكاري نورتنغاتون.

كانت الطريقة التي تتسلل فيها أفكارها إليه أكثر من مسببة للاضطراب.. فعند أقل بارقة ذكرى، كانت تجده أمامها.

حاولت جاهدة ألا تتذكر لحظة ضعفها وعاطفتها المشبوبة، لكن هذا لم يكن سهلاً.. أحست مراراً ومراراً بأن جسدها يحترق بحرارة ممتعة خاصة وهي لا تنفك عن تذكر استسلامها له بدون احتجاج.

ما علمت قط أنها قادرة على التصرف على هذا النحو.. وعانت من الخزي والعار عندما تذكرت مدى تجاوبها! يا الله! ماذا طغى عليها؟

خرجت أستيرا إلى الغداء ذلك اليوم وهي تقنع نفسها بأنها ما تزال تكره زاكاري نورتنغاتون.. فمطلق رجل قادر على تحويل ما كان تجربة مثيرة مشتتة للفكر إلى مجرد «عبث في غرفة نوم» لا يستحق الإعجاب.

عادت من الغداء متسائلة عما عساه يدعو ما حدث بغير هذا الاسم. السبب الوحيد الذي جعلها تبتعد عن غرفة النوم، هو

إدراكها المفاجيء بأن ما كان يدفعهما هو مجرد رغبة.

ضجرت من تفكيرها الدائم في زاكاري نورتنغانون وركزت على عملها، تعيد الإقرار بكراهيتها له.. أدركت الآن، بالطبع، أنه لم يكن ذلك النذل الذي صوره نايغل، ولكن هذا أمر جانبي.

لقد أخبرها أنه سيأتي هذا المساء ليصطحبها إلى البيغ هاوس.. ولكن حالما تذكرت تعبير وجهه الغاضب عندما غادر شقتها يوم الثلاثاء، قررت ألا تحبس أنفاسها بانتظار طرقة منه على الباب.

اعتقدت بأنها تريد الذهاب لرؤية ميرا، بناء على رغبتها. ولكن هذا ما ثبت أنه غير صحيح، ففي حوالي الساعة الرابعة والنصف رن جرس الهاتف في المكتب، فالتقطته..

سألتها أنثى مألوف لها صوتها:

ـ آنسة موفيت؟

ـ نعم.

ـ جاين إيفوري.. طلب مني السيد نورتنغانون أن أتصل بك فهو يقول إن اجتماعه سيطول، لذا لن يستطيع القيام بزيارتك قبل الثامنة.

ـ شكراً آنسة إيفوري.

ردت السماعة إلى مكانها مبتسمة.

آه، يا الله! فكرت مشمئزة في أن من يراها سيظنها في نشوة لتأكدها أنها سترى ذلك الخنزير المغرور مرة أخرى! لكنها سرعان ما أكدت لنفسها أن لا علاقة لخفقان قلبها المهتاج به.. فمن لا يهتاج أمام ترقب رؤية الصغيرة ميرا؟

وضيت أستيرا حقيبتها الصغيرة، وفي تمام الثامنة كانت على أهبة الاستعداد ولكنها شعرت بأنها متشعر بإحراج شديد في

الدقائق الأولى على لقائهما.. فهي لا تجد نفسها كل يوم بين ذراعي رجل، وقد فقدت وعيها عما عداه، وهذا الحرج بالذات هو سبب خفقان قلبها الشديد. عندما سمعته يرتقي الدرج قاصداً شقتها، التقطت الحقيبة، وحاولت أن تظهرْ نفسها باردة.

قالت وهي تشغل نفسها بوضع المفتاح في القفل من الخارج «مساء الخير».

لم يردّ، بل تناول حقيبتها من يدها، وتركها تقفل شقتها ثم انتظرها في سيارته. سألها وهما ينطلقان:

ـ هل تناولت الطعام؟ طلبت من أمي ألا تنتظرنا لتناول العشاء.

ردت باقتضاب: «تناولت الطعام».

ولم يتعدَّ حوارهما هذه الكلمات.

ما إن فتح لها باب المنزل الأمامي، ورافقها إلى الردهة حتى توقفت مسمّرة.. هناك، تحت منحنى الدرج عربة أطفال تشبه سيارة رولزرويس. كانت عيناها مسمرتين على المهد الغالي الثمن حين دخلت السيدة نورتنغانون إلى الردهة بعدما سمعت وقع أقدامهما. قالت وهي ترى أن أستيرا تجد صعوبة في تحويل عينيها عن العربة:

ـ أرجو ألا تعترضي أستيرا، ولكن عندما تمكنا من إعادة إطارات المهد الثقال، وجدنا أن دفعه فوق الطريق المرصوفة بالحصى قد يبعث السعادة إلى الصغيرة ميرا.

تمنت أستيرا من كل قلبها، لو أن السيدة نورتنغانون لم تتعب نفسها، فالعربة غالية الثمن، ولا مكان لها في شقتها. ولسوف يصاب دُيكتور هانت بنوبة قلبية إن اقترحت تركها في ردهة المبنى السفلي.

قالت للسيدة نورتنغاتون صادقة: «إنها عربة جميلة».

ـ أتريدان العشاء؟

ـ لا أدري ما يريده زاكاري، ولكنني غير جائعة. سأذهب لأطمئن على ميرا، ثم أخلد إلى غرفتي.

لاحظت أستيرا أن السيدة نورتنغاتون قد بدت في غضون أسبوع أصغر سناً. ردت على أستيرا:

ـ طبعاً.. أعتقد أنك مرهقة بسبب العمل.. ستنزلين في الغرفة نفسها ولكن رجاء لا تزعجي ميرا إن كانت نائمة.

ردت بهدوء: «لا، لن أفعل».

لكن ميرا كانت مستيقظة حين دخلت أستيرا إلى غرفة الأطفال.

ـ ألم تكن أجود من الذهب طيلة الأسبوع؟

ضحكت روزي المتعلقة بالطفلة الحقيقة كثيراً ثم وضعت ميرا بين ذراعي أستيرا التي ردت بدون أن تصدق للحظة، إلا إذا حدث تغيير جذري في شخصية الطفلة:

ـ أنا واثقة من هذا.. ولقد كبرت كذلك، وهذا مؤكد.

حملت روزي كلامها على أنه إطراء، وأعلنت بفخر أن الطفلة بدأت تنام الليل كله.

لم تشعر أستيرا بالسعادة عندما أوت إلى فراشها تلك الليلة غير أنها اضطرت للاعتراف بأن الطفلة ازدهرت هنا. لقد كان زاكاري محقاً حينما قال إن بقاء الطفلة لدى جدتها أمر صائب.

في الصباح التالي كان مزاجها على حاله. توجهت إلى غرفة ميرا التي وجدتها نائمة. راضية النفس.. لكن أستيرا وجدت أكثر من سبب للقلق حين شاهدت الثياب التي كانت روزي تجهزها لاستحمام ميرا.

نظرت إلى ما وراء روزي، إلى خزانة مليئة بثياب الأطفال، فإذا هي لا تعرف قطعة منها:

ـ من أين أتت كل هذه؟

ـ ذهبت السيدة نورتنغاتون إلى السوق يوم الأربعاء، وأمضت وقتاً جميلاً.. أرأيت العربة في الردهة؟

تمتمت أستيرا: «إنها جميلة».

نزلت إلى الفطور شاعرة بأن وصايتها على ميرا تتداعى.

تمكنت من الابتسام كتحية للسيدة نورتنغاتون، وتلفت اعتذاراً بأن زاكاري تناول فطوره باكراً، لأنه اضطر للذهاب إلى رؤية بناء يسبب لها المتاعب ثم أردفت تسأل:

ـ شاهدت ميرا هذا الصباح؟

ومضى وقت الفطور، ولا موضوع يشغلهما غير موضوع ميرا فتفاقم اضطراب أستيرا التي ما إن عادت إلى غرفة الطفلة بعد الفطور حتى ازدادت قلقاً فمن الواضح أن السيدة العجوز تزداد تعلقاً بالصغيرة.

قالت لروزي بعدما ألبستها ملابس جميلة بعد الحمام:

ـ سأحملها للقيام بنزهة.

راحت تدفع العربة على الطريق الريفية لكن أملها في نسيان همومها باء بالفشل.

لقد حُلّت مشكلة العودة إلى عملها. إنما ماذا كان الثمن؟ فجأة أدركت أنها لا تريد أن تضيف ألماً إلى الألم الذي تعانيه السيدة نورتنغاتون.. ولكن غولييت عانت كذلك!

وجاء الإحساس بالذنب ليزيد كرب أستيرا. غير أن وقت الندم قد فات.. وما كان يجب أساساً أن تحضر ميرا إلى البيغ هاوس.. فبقاء غولييت بعيدة، يعني بدون شك أنها مصممة على

عدم العودة إلا بعد خروج نابغل من قلبها وكيانها وهذا إشارة واضحة إلى أنها سترفض حتماً أن يكون لابنتها علاقة بعائلة نورتنغاتون.

لم تعد إلى المنزل إلا لأن السيدة نورتنغاتون ستغضب إن تغيّب أي ضيف عن مائدة الغداء بدون سابق إنذار.. أعادت ميرا إلى روزي، وشعرت بمزيد من انقباض النفس.

بعد زيارة سريعة إلى غرفتها، وترتيب شعرها، وغسل يديها، نزلت إلى غرفة الطعام. كان زاكاري وأمه قد سبقاها إليها.. بدا في مزاج لطيف ولكن أستيرا كانت مشغولة الفكر على المشاركة في الحديث الدائر.

سألها، بطريقة لطيفة إنما ملؤها حدة واتزان:

ـ كيف أمضيت صباحك؟

ـ عظيم.. شكراً لك.

عادت لتركز على ما يتوجب عليها القيام به الآن. السيدة نورتنغاتون، سيدة الرأي الثاقب، وإن تحت موضوع تعلقها بميرا ترى أن من حقها إبداء الرأي بتربية حفيدتها.. وأدركت أستيرا أن غولييت العنيدة ستكون غاضبة إن أقدمت أستيرا على تقديم الطفلة إلى جدتها لأمها وهي التي رفضت أساساً أن تخبر أمها بوجودها. فكرت أستيرا بتعاسة، أن التفكير في الكارثة بعد وقوعها، حمل رهيب. لكن، لا بد من وجود من سيتألم بشدة قبل انقضاء هذا الأمر. ولم ترغب أن يكون هذا الشخص هو السيدة نورتنغاتون، كما لا ترغب أن تكون غولييت، لأن المرأتين عانتا معاناة كافية.

ـ المزيد من فطائر الجبن أستيرا؟

أفاقت أستيرا من شرودها، لتدرك أن السيدة نورتنغاتون تخاطبها، فردت:

ـ لا.. شكراً لك.

نظرت إلى طبقها فإذا بها ترى أنه فارغ من فطائر الجبن.. من المذهل أن تجد نفسها قد مضغت وابتلعت طعامها بدون أن تعي ما تأكل.

ابتسمت السيدة نورتنغاتون:

ـ اعتدت على تقديم وجبة الساعة الثانية لميرا. أتمانعين؟

كانت تتوق إلى هذا الفعل بشدة وهذا ما دقّ مسماراً آخراً في نعش قنوط أستيرا. ومع ذلك ردت: «لا، أبداً».

راقبت السيدة بتعاسة، وهي تخرج من الغرفة مستقيمة الظهر، بدون انتظار القهوة... وقررت أنها لا تريد القهوة أيضاً، كما قررت ترك المائدة، غير أنها ما إن طوت منديلها حتى سمعت زاكاري يسألها:

ـ ما خطبك؟ ما الخطأ؟

نظرت إليه بغضب: «وما هو الصواب؟»

تجاهل نظرتها الغاضبة، كما تجاهل تصرفها. وقال بذكرها:

ـ قلت لك سابقاً، إنني على استعداد لمساعدتك.

ردت بحدة: «تلقيت ما يكفي من عونك وانظر إلى أين أوصلني ذلك؟»

ـ أنادمة أنت لأنك عدت إلى العمل؟

اعتبرت أستيرا أن هذه ضربة غير قانونية، فأجابت بحدة:

ـ بل نادمة لأنني سمحت لنفسي بجلب ميرا لتحضنها أمك.

نالت قسطاً آخر من منطقه الكريه، حين قال:

ـ ولكن بسير كل شيء كما وعدت!

ـ ما يقلقني هو ما لم تعدني به.. في الواقع كان عليك أن

تحذرني أن أمك ستفكر فقط في ما هو الأفضل لحفيدتها.

- أتشيرين إلى العربة في الردهة؟

- وإلى أشياء أخرى.

- عزيزتي أستيرا، أنت فعلاً في حالة سيئة.. ولكنني أؤكد لك أن أمي تستطيع تحمل ثمن تلك العربة التي كادت تكسر عظام ساقي عندما دخلت.

رفضت أن تشعر بالذنب، لأنها لم توقف العربة في الموقع الذي وجدتها فيه.. ورفضت كذلك أن تهدأ، وتمنت لو أن ساقيه ما زالتا تؤلمانه. قالت بحرارة:

- ليس الأمر مجرد عربة أو ملابس جديدة بل المسألة أنها تزداد تعلقاً بطفلة غوليت! لم يمض على وجود ميرا أسبوع حتى باتت محور حديثها كله.

- وكل هذا نحو الأفضل، فمما لا شك فيه أنك رأيت ما أصبحت أمي عليه منذ جلبنا إليها الطفلة التي أصبحت محور حياتها، وأنت غداً عندما تعودين إلى لندن ستشعرين بالراحة لأن الطفلة في أتم عافية مع جدة تحبها.

صاحت: «وهذه هي المشكلة بالضبط. لقد شُغفت بها أمك إلى درجة لن تعود معها قادرة على تركها!.. أتعتقد أن غوليت ستحب هذا؟ ترى ماذا ستقول حين تعود فلا تجد طفلتها؟ وحين تسألني ماذا فعلت بها؟ سوف..»

- كان عليها أن تهتم بما ستفعليه قبل أن تتركها معك. كان عليها أن تفكر في المتاعب التي ستواجهينها ولكن انظري ما فعلت؟ لم تتصل بك سوى مرة واحدة.

انبرت تقاتل دفاعاً عن صديقتها:

- شرحت لك الأسباب! لولا استغلال أخيك لها وتخليه عنها

وإنكاره أبوة الطفلة، لما رحلت... أما أنا، فاعتبر أفضل صديقاتها بل أنا أختها وإن كنا لا نحمل دماً واحداً. ألم تر أنني قمت بعمل رائع في المحافظة على ابنتها؟

- بل رأيت ذلك بوضوح.

- أوه.. طبعاً.. وما هي الطريقة الفضلى للعناية بها؟ تسليمها إلى معسكر الأعداء؟

تجاهلت رفع حاجبيه لتشبيهها، وأكملت:

- كلما طال بقاء ميرا مع عائلة نايغل، كلما زاد تعلق أمك بها.. والله وحده يعلم ما ستقوله غولي لدى عودتها. ولكن إن لم تعد فوراً فستتولون على ابنتها.. وعلى ما يبدو أن لا حيلة لي أو بد في منع ذلك.

انهار اندفاعها واستُنفد غضبها. لاحظت نظرة التفكير في عيني زاكاري، ولكنها انتزعت نظرها عنه، وحدّقت إلى غطاء المائدة.. قال لها زاكاري مرة إن الوضع كله معقد وقال مرتين إنه على استعداد للمساعدة. ولقد رفضت عرضه الثاني لأن الأول زاد الأمر سوءاً.

اضطرت إلى منحه علامة كاملة، بعدما قررت أن من الأفضل الصعود إلى غرفتها وانتظار ما قد يخرج به من حلول.. انتظر حتى رفعت رأسها فقال لها:

- بإمكانك.. طبعاً.. الزواج بي.

خفق قلبها لاقتراحه وهذا الخفقان أمر طبيعي برأيها فهي لا تتلقى عروض الزواج كل يوم. لكن خفقان قلبها سرعان ما استقر حين أدركت أنه ليس بدافع الحب. لقد أخبرتها نظرته اللطيفة بذلك.. كانت تتصور أن الرجل الذي سيتقدم بطلب يدها سينتظر الرد بشيء من التوتر.. لكن ما من توتر على وجهه.. بل كان

وجهه وجه من يقترح عليها الخروج في نزهة للترفيه عن كلب. كما أنه لم يضف كلمة بعد عرضه المذهل، وهذا يشير إلى أنه ينتظر رداً.. وكان ردها ساخراً:

- وما أصيب من زواجي بك؟

- ستحققين فقط ما يهمك.. عزيزتي أستيرا.. إن أصبحت عضواً من العائلة أصبحت قادرة على إبداء رأي فعال في مسألة الطفلة.

أستيرا بالتأكيد بحاجة إلى هذه القدرة، وكلما طالت غيبة غوليت، كلما فقدت حقوقها بالنسبة للطفلة. لقد باتت تعرف زاكاري المراوغ المخادع. ترى ماذا وراء عرضه هذا؟

سألت ببرود: «وماذا تجني أنت من هذا الزواج؟»

نظر إليها زاكاري باستغراب، ولكن تأخره في الرد أمهلها وقت للتفكير في يوم الثلاثاء الماضي حينما قال لها بصوت أجش إنه يرغب فيها، فقالت تستعيد كلمات قالها لها مرة:

- عزيزي زاكاري.. الزواج خطوة خطيرة. أهي خطوة لمجرد إشباع رغبتك في جسدي؟

عندما لم يتأثر بما قالت، تسلل القلق إلى نفسها خاصة وهي تراه ينظر إلى جسدها نظرة ذات معنى. ثم قال:

- إن جسدك لرائع حقاً ولكن غايتي هي إبعاد أمي عن ظهري، لا تلبية رغبة عابرة كانت على ما أذكر رغبة مشتركة.

تمنت بائسة لو تستطيع الإنكار، ولكنه أردف:

- كنت محطئة عندما ظننت أن أمي لا تتحدث أو تفكر إلا في حفيدتها إذ كانت تتصل بي يومياً هذا الأسبوع لتقنعني بأن أقوم بما هو «صواب» أي الزواج بك.

آه، يا للمساعدة! لقد اعتقدت أن السيدة نورتنغاتون قد

رضخت لعدم رغبتهما في الزواج، لكن يبدو أنها لم تتخل عن هذا الموضوع. كانت أستيرا تحس بوخز كلام زاكاري المتعلق بالرغبة العابرة ولم تمض إلا هنيهة حتى وجدت الرد:

- هناك طريقة سهلة، لإبعاد أمك عن ظهرك.. كل ما عليك فعله هو قول الحقيقة لها.. قل لها إنك لست والد ميرا.. و..

- لو قلت لها هذا لاضطررت إلى الاعتراف بأنك لست والدة ميرا. ونظراً لمعرفتي بأمي أعتقد أنها لن تنتظر سماع المزيد لتسرع إلى محاميها طالبة الوصاية القانونية على الطفلة.

شهقت أستيرا: «لن تفعل هذا».

- ستفعل!

- لا، يا الله!

لم تعد تستطيع التحمل بعد، فهبت من مكانها وتوجهت إلى الدرج ولكنها لم تلبث أن غيرت رأيها وارتدت عنه فمما لا شك فيه أن السيدة نورتنغاتون وروزي في غرفة الطفلة.. وهي غاضبة متكدرة بحيث لن تستطيع الذهاب إلى غرفتها لتذرعها فقط.. وهكذا اتجهت إلى أشعة الشمس.

أوصلتها خطواتها إلى الطريق التي تنزهت فيه مع ميرا هذا الصباح.. في البداية، كانت أفكارها مشوشة ثم لم تلبث أن طفقت محنتها الداخلية تتضاءل وأصبح تفكيرها أصفى حالاً.

لم يكن لديها فكرة، عما إذا كان من المسموح للسيدة نورتنغاتون المطالبة بالوصاية على نبني ميرا قانونياً. ولكن ستكون الجدة الأقدر على هذا الحق لأنها تملك المال والقدرة على تأمين حياة مترفة للطفلة.

آه، ليت غولي تعود الآن!

تركت غياء التمني، وبدأت تفكر في أمور كانت تدفعها إلى

زوايا النسيان. في هذه اللحظة باللذات أدركت أنها كانت مجنونة لأنها ظنت أن لزاكاري مشاعر. فهو لم يتصل بأمه بسبب اشتياق أستيرا إلى الطفلة بل لأن أمه هي التي اتصلت! أما السبب الوحيد لذكر ميرا فإبعاد أمه عن إصرارها على شد أذنه في موضوع الزواج.

أحست أستيرا بشيء غريب في أعماقها حينما فكرت في الطريقة التي طلب فيها زاكاري الزواج بها.. لكن اندفاعاً غريباً رفض السماح لها بالتفكير في طلبه ولهذا حوّلت أفكارها إلى تذكر ما تكرهه منه: منطقه وخداعه وقلة إحساسه.

مع هذا رأيها الراسخ، بأنه لا يملك ذرة حساسية، راح يتداعى ولم تر نفسها إلا وهي تفكر في إخلاصه لعائلته.. تابغل «اقترض» المال من زاكاري ومن أمه وكان مجرماً في كلتا الحالتين.. ومع ذلك لم يقل زاكاري كلمة نقد بحقه. ثم ماذا عن اتصاله للسؤال عن ميرا؟ هل ذلك يدل على لا مبالاته؟ فهل يقوم رجل عديم المشاعر بزيارتها في شقتها ليقول لها ان ميرا على خير ما يرام؟

تذكرت فجأة ما شعرت به تجاهه حينما زارها كما تذكرت أنه قبل أن يرحل، اختبرت نوعاً جديداً من الدفء.

تلقت لحظتئذ أكبر صدمة لها. فجأة، وهي تفكر في رقته ولطفه وعناقه عرفت أنها ترغب في أكثر من هذا منه.. وهكذا.. أدركت أستيرا وبشكل نهائي أنها تحب زاكاري نورتنغاتون.

تقدمت لتستند إلى بوابة حديدية مذهولة. كيف ولماذا، ومتى وقعت في حبه؟ وبسبب ذهولها لم تدرك أن حبها له قد بدأ منذ وقعت عيناها عليه.. فمنذ البداية، أثار عاطفتها غير أن تلك العاطفة لم تكن واضحة بالنسبة لها.

لم تكن مضطرة للتساؤل عن العاطفة الجديدة القوية التي أقامت في وجهها حاجزاً من الكراهية غير أن ذاك الحاجز سرعان ما تهاوى ووقعت رأساً على عقب في الحب، هذا الحب المؤلم الذي عليها مهما كان الثمن التهرب منه.

أخيراً ابتعدت عن البوابة، وتوجهت نحو المنزل، وتفكيرها منصب على زاكاري. حالما تذكرت طريقته في اقتراح الزواج أدركت سبب رفضها التفكير فيه منذ لحظات. لا بد أن قلبها كان يعرف أنها تحبه أما رأسها فكان يمر بشكوك اللحظات الأخيرة، بحيث لم يسمح لذلك الواقع برؤية النور، ولأنها في أعماقها، قلباً وفكراً عرفت أنها لا تريد شيئاً أكثر من الزواج به.

"اكتشفت خافقة القلب أنها تتساءل، عما إذا عليها الزواج به؟ لقد طلب يدها.. وتباطأت ضربات قلبها وعادت إلى رتابتها المملة. لم يطلب زاكاري يدها بدافع الحب بل بدافع القلق والتعب من مكالمات أمه..

ارتدّت أستيرا على عقبيها حائرة فتوجهت إلى غرفة الطعام تلك الليلة متمنية لو تهرب تاركة كل شيء خلفها.. ولكن عليها من أجل غوليت البقاء والاستمرار في إدعاء أنها أم ميرا.

تركت غرفتها، وكانت على وشك النزول حين فكرت فجأة أن الجلوس قبالة زاكاري على المائدة سيبعث إليها مزيجاً من الإثارة والتوتر. فكان أن دخلت من غير وعي إلى مخدع الطفلة لتسأل روزي:

- أكل شيء على ما يرام؟

ابتسمت روزي: «نعم».

وعدت أستيرا بالعودة، ثم خرجت ولكن فيما هي في طريقها إلى غرفة الطعام، ألقت على نفسها عظة عن عدم السماح لزاكاري

برؤية ما يشير إلى مشاعرها نحوه.

لكن المواجهة الباردة التي قررت تبنيها ثبت عدم ضرورتها. فما إن بدأوا بتناول العشاء حتى أصبح ظاهراً أن عقل السيدة نورتنغاتون، كان مشغولاً بأفكار كثيرة. ولحسن الحظ وجهت كل ملاحظاتها لابنها، لكن أستيرا بقيت قلقة غير مستريحة بدور المشاهدة الصامتة..

ما كادت تبدأ بتناول السلمون المدخّن حتى نظرت السيدة نورتنغاتون إلى زاكاري، وبدأت الهجوم، وكأن شيئاً ما يختمر في داخلها:

ـ ماذا ستفعل بالضبط بشأن ابنتك؟

أدركت أستير أن مضيفتها تريد الآن الحصول على أجوبة اختمرت أسبوعاً كاملاً، حرصت أستيرا على عدم النظر إلى زاكاري.. لكن تأخره في الرد على أمه، جعلها تختلس نظرة إليه.. وفهمت من تعبير وجهه أنه عرف أن أمه جادة في السؤال.

قال بعدما بدا لها دقائق طويلة.

ـ من الطبيعي أن أقوم بالترتيبات لحفيدتك.

قالت له أمه ببرود: «لم أقصد هذا بقولي».

كانت أستيرا واثقة أن زاكاري يعرف بالضبط قصد أمه التي راحت تذكره بالعار الذي ألحقه باسم عائلة نورتنغاتون، وبالإجحاف الذي يرتكبه بحق ابنته غير الشرعية.

كانت شهية أستيرا تتضاءل كلما أكثرت من الضغط بكلامها على زاكاري وأخيراً تصاعد حبها لزاكاري في نفسها، وبدأ قلبها يؤلمها بسبب الضربات الكلامية التي يتلقاها.

رد زاكاري على أمه باحترام غير أن الضغط كان مستمراً حتى وصول السيدة كاوتر الحاملة آخر لون من ألوان الطعام.. فساد

صمت متوتر قصير حتى خرجت مجدداً، ثم عادت السيدة نورتنغاتون إلى سيرتها السابقة.

كادت أستيرا تحاول مقاطعتها حين أشارت إليها السيدة نورتنغاتون قائلة إن الكثيرات من النساء يعملن وهن متزوجات.

أدركت أستيرا بسرعة أن عدم اعتراف زاكاري بالحقيقة غايته محاولة الدفاع عن حقها في الوصاية على ميرا. ولكن كلما كان مجبراً على الدفاع عن حقوقها، كلما زادت حاجتها لكبح الاندفاع والدفاع عنه.

سألت السيدة نورتنغاتون بصراحة وقد ازداد غضبها:

ـ وماذا عن ميرا؟ هل ستشب لتقال لها إنها ابنة حرام. وهل أنت مستعد لتدمير عالمها السعيد حين تلتحق بمدرسة ما فترى هناك من يتهامس خلف ظهرها؟

ـ لم أقرر شيئاً حتى الآن بخصوص مدرستها.

ـ لكنها ستذهب إلى المدرسة.. فماذا ستفعل عندما تعود الطفلة إلى البيت باكية محطمة الفؤاد؟

أحست أستيرا بأن قلبها هو الذي سينحطم.. ولكن زاكاري حافظ على هدوئه وقال: «أرجو أن أكون مستعداً».

لجأت السيدة نورتنغاتون إلى طريقة أخرى للابتزاز العاطفي..

ـ من الواضح أنك لست مهتماً بالمأساة التي ستعانيها الطفلة. ولكن.. ألم تفكر في؟

بدت الصدمة فجأة على زاكاري، ولم يعرف كيف يرد.. أحست بشيء كالألم الجسدي، لأنها تجلس هناك بدون أن تقول شيئاً، فيما يحاول وسعه لمنع أمه من الاستيلاء على الوصاية على ميرا.. ولم تعد قادرة على البقاء ساكتة أكثر من هذا.. ففتحت

فمها لتقول شيئاً.. لكن قبل أن تتمكن من الدفاع عنه، وجد زاكاري الرد.

ـ ماذا تقصدين؟

ـ ألم تفكر في ما سأشعر به حين أقدم ميرا على أنها حفيدتي فيصيح الناس عجباً «لا نعرف أن أباً من ولديك متزوج!».

ـ أنا..

وصمت، وقد فقد القدرة على الكلام مرة أخرى.. إلا أن الكلمات تفجرت من أستيرا، بعدما تلوى قلبها.. خرجت منها الكلمات.. كلمات لم تكن تعرف أنها ستقولها، كلمات لم تقصد أن تقولها.. لكنها كلمات انطلقت من أعماقها، لا إرادياً.

ـ سيدة نورتنغانون.. لقد طلب مني زاكاري الزواج به، وأنا قبلت طلبه.

فجأة.. سكتت الغرفة..

• • •

٨ ـ احذر يا بنيّ

هل قالت حقاً هذا؟ أقالت حقاً إن زاكاري طلبها للزواج وإنها قبلت طلبه.

ولكن نظرة سريعة إلى السيدة نورتنغانون أكدت لها أنها قالت ما قالته فعلاً! فقد تلاشت عن وجهها كل تعابير الغضب والتوتر وعمّ وجهها الابتسام.

التفتت الأم إلى ابنها وقالت توبخه:

ـ أيها الرجل الخبيث.. كنت تتاكدني قصداً! تركتني ضائعة في الوقت الذي كنت تجهّز فيه هذا الخبر لتبشرني به.

ـ لم أستطع المقاومة.

صدمت أستيرا وصدمتها هذه جملتها لا تعي شيئاً مما دار بعد ذلك بين الأم وابنها من أحاديث.

آه، ماذا فعلت؟ لم تقصد أن تتفوه بما قالته! لم تقصد! لم تقصد! ودت لو تنشق الأرض وتبتلعها. فلم يكن حبها له وحده هو ما دفعها إلى ذاك القول بل هناك غريزة أخرى جعلتها تسارع للدفاع عنه بغية التخفيف من وطأة الهجوم.

تساءلت في وقت لاحق عما إذا كان عقلها الباطني قد جارى لسانها لأنه كان يعرف أنها تحب أن تتزوج زاكاري أكثر من أي شيء آخر.. ولكن صدمتها كانت أكبر من أن تعترف لنفسها.

حالما رأت السيدة نورتنغانون تهم بترك المائدة نفضت أستيرا عنها أفكارها.

آه، لا..! لا يمكن أن تنفرد بزاكاري فمشاعرها مشتتة، وضائعة بحيث لا تستطيع تقديم تفسير لزلة لسانها.. فجأة عمّ قلبها الذعر.

قالت السيدة نورتنغانون مبتسمة:

ـ عليّ أن أزف هذا الخبر الرائع لأحد. سأقصد روزي أولاً.

ما إن أقفلت الباب وراءها حتى وقفت أستيرا.. ما كادت تبلغ الباب حتى شعرت بيده على ذراعها توقفها.

هدد قلبها بالفرار من بين أضلعها. ما زالت غير قادرة على إيجاد ما تقوله له، واضطرت إلى ردع نفسها عن الفرار ثم شعرت به يديرها لتواجهه..

ـ ألا تظنين أن علينا مناقشة أمر صغير؟

نظرت إليه بسرعة، وجذبت نفسها من قبضته، ورغم تماسكها، لم تجد ما تقوله سوى: «أنا آسفة لم أقصد..»

لم يقل زاكاري شيئاً، بل انتظر أن تتم عبارتها بصمت. فجأة أخذت تتلعثم بالرد:

ـ أعرف أنك قادر على الدفاع عن نفسك ولكن بما أنني أعرف أن لديك أسباباً لئلا تعرف أمك حقيقة أبوة الطفلة وبما أنك كنت في موقف حرج بسبب محاولتك الدفاع عن حقي في الوصاية على ميرا لم أجد من الانصاف أن أجلس مكتوفة اليدين لكنني لم أقصد أن..

فجأة توقفت فابتسم متمتماً: «أكنت تدافعين عني؟ إن هذا لمشجع حقاً؟».

كانت تجهل قصده من وراء قوله: «إن هذا لمشجع» ولكنها

في الوقت الراهن لم تستطع التفكير في مقصده. فكررت: «أنا آسفة.. فكرت بعدما وجدت المحنة التي تعاني منها..»

ـ فكرت في مساعدتي على الخلاص؟

«ابتسم مرة أخرى وبدا عليه المرح.

ـ حسناً، يا بطلتي الجميلة.. لقد فعلتها أخيراً.

حين ناداها زاكاري «بالبطلة الجميلة» لم تستطع سوى أن تقول:

ـ لم أفهم مغزى كلامك؟

ـ لقد شاهدت أمي وهي تلح على شيء، إنها تجعل الإرهاب بخجل منها. ما فعلته في محاولتك تخفيف الموقف عليّ هو بمثابة التأكد من أن أحداً منا لن ينال قسطه من السلام حتى نسير إلى مذبح الكنيسة.

ردت بضعف: «أنت تمزح؟»

ـ لا أمزح كما أن اقتراحي بالزواج لم يكن مزاحاً. أظن يا أستيرا أن أفضل ما تقوم به هو الزواج.

خفق قلبها حين خالت أنها ترى نظرة دفء في عينيه، أيرغب في الزواج بها لأنه يشعر بشيء نحوها؟ أردف معتمداً ذاك المنطق الذي تمقته والذي رمى مياهاً باردة على آمالها:

ـ تدركين، كما أدرك أنها الطريقة الوحيدة للخروج من هذه الورطة.

ـ لأن.. لأنك.. إذا تزوجتني دفنت أحزانها، وجعلتها تقلع عن معاداتك.. و..

ـ وأنت، تصبحين من العائلة وعندها يتأكد حقك في الطفلة.. إنها الطريقة الوحيدة أستيرا.. صدقيني.. في الواقع أنا أرى أنك من تلقى أسوأ الضربات. والآن أعترف أنني أعجبت بك

بعدما رأيت ما تمرين به من ألوان التوتر كما رغبت في التخفيف عن كاهلك.

لم يعجبها تسارع خفقات قلبها لمجرد قوله إنها تعجبه.

ـ شكراً لك.

قالت ذلك بدون أن تعرف سبب شكرها له. بذلت الجهد حتى وجدت بعض القدرة للسيطرة على نفسها. بعد لحظة، كانت تحاول بكل ما لديها أن تفكر في المنطق الذي يفكر فيه دائماً.

ـ فلنفترض أن غولييت اختفت مدة طويلة.. و.. لنفترض أنني وأنت.. تزوجنا.. ماذا ستعتقد أمك عندما تترك لها ولروزي أمر رعاية ميرا؟ ألن يبدو الأمر شاذاً؟

هز كتفيه، وكان لديه الرد المنطقي كالعادة:

ـ فهمت من قولها انها تقبل بأن تعمل الزوجة كما أنها تعرف أن شقتي مكان غير مناسب لتربية طفلة.

وفيما كانت تتمنى أسيرا في قلبها ألا ترى أمه «جحر الفأرة» الذي تسكنه أردف زاكاري:

ـ ستغضب أمي العزيزة إن حاولنا أخذ الطفلة منها قبل أن نجد المنزل العائلي المناسب لها.

ـ فهمت.. وخلال هذا الوقت المفترض فيه أن نبحث عن المنزل المناسب تكون غولييت قد عادت.

ـ أنت تستبقين أفكاري.

وكأنما لم يستطع فهم ما تعنيه، فقامت بما في وسعها لتشرح له بوضوح:

ـ قالت غولييت عندما اتصلت بي إنه قد تمر سنة قبل عودتها. ظننتها تمزح وكنت واثقة من عودتها قبل هذا بكثير. ولكن، إن تزوجنا في هذه الأثناء تمكنا من «تأخير» مسألة المنزل العائلي

حتى اللحظة المواتية التي نستطيع فيها الاعتراف لأمك بالحقيقة.. وحتى ذلك الوقت تكون غولي قد عادت.. وحالما تمضي هذه الأزمة نعمد إلى الطلاق.

ظنت أسيرا أنها قد قامت بعمل صائب في إيضاح الأمر. ولكن التقطيبة القاتمة التي علت وجه زاكاري عندما أنهت كلامها، جعلت حاجبيها ينعقدان أيضاً وهي تحاول إيجاد طريقة أخرى تختصر فيها استنتاجاتها.

إن زاكاري ذكي وهو دون شك التقط ما وراء كلامها.. فتلاشت تقطيبته أمام نظرة مرحة.. وقال يمازحها:

ـ لا تظهري هذا القلق. أنت ستتزوجينني فقط، ولن ينقطع رأسك؟

مد يده بلامس ذراعها ليديرها نحو الباب قائلاً:

ـ أنوي التخفيف من وطأة الأمر عليك لا العكس.

وصلا إلى الباب ففتحه لها، ولكنه ترك قبضته على ذراعها، فرفعت نظرها إليه مستفهمة، وقام قلبها برقصة مرحة أخرى بسبب وجود نظرة دافئة أكيدة في عينيه هذه المرة وهو يقول:

ـ لا تقلقي. اتركي كل شيء لي.

فتحت فمها لتتفوه بما لا تعرف ما هو ثم لم تتح لها فرصة قول شيء، فقد بدا أن زاكاري معجب بتورد وجنتيها فأحنى رأسه ثم لثم خدها الملتهب. وقال بكلمات حالمة:

ـ تصبحين على خير عزيزتي.

ومن بين هذا العالم الحالم خرجت لتنام.

استيقظت مذعورة من كابوس مخيف.. هل وافقت فعلاً على الزواج بزاكاري؟ وسرعان ما طار النوم من عينيها.

تذكرت بوضوح كل الأسباب المنطقية التي دفعتها للقبول

بهذا الزواج. وتمكنت كذلك من تذكر ما قالته له، لقد قالت إنهما سيعمدان إلى الطلاق بعد انتهاء هذه الأزمة ولكنها لم تستطع أن تتذكر متى قالت إنها ستتزوجه.. فجأة، بدا لها كل شيء خاطئاً. إنها تريد بكل جوارحها الزواج به ولكنها تريد أن تتزوجه عن حب لا عن منطق.

أبعدت أستيرا أفكارها عن عدم حب زاكاري لها وبدأت بالتفتيش عن الإيجابيات.. فرأت أن الإيجابية الأولى هي أنه يحاول دوماً منحها الحق في رعاية ميرا أما الإيجابية الثانية فإعجابه بها.

بعدما ألقت نظرة على غرفة الطفلة، نزلت قاعة الطعام. فوجدت السيدة نورتنغاتون هناك وحدها.. واستقبلتها بابتسامة حارة:

- صباح الخير أستيرا. أخشى أننا وحدنا على الفطور فخطيبك مشغول هذا الصباح.

يا الله! إصرار السيدة على تذكيرها بأنها مخطوبة لابنها جعلها غير واثقة من سرورها أو أسفها على عدم وجوده معهما الآن.

- لم تتح لنا فرصة الحديث ليلة أمس.. ومع ذلك يجب أن تعرفي مدى سعادتي باتخاذكما قرار الزواج أخيراً. أردت أن تعرفي أنني ما كنت لأكون أسعد حالاً فيما لو اختار زاكاري فتاة سواك.

آه، يا الله! ليتها لم تنزل لتناول الفطور! والسيدة نورتنغاتون تبدو صادقة في مشاعرها، ولطيفة جداً معها..

تمتمت وهي ترى أن عليها قول شيء: «وهل أنت راضية؟»

- لن أكون أكثر رضى ولكنك تدركين أنه كان لزاكاري صديقات كثيرات من قبل. وأنا سعيدة لأنه اختارك من بين أولئك

المتمجرفات اللاتي اعتاد على قضاء ليالية في المراقص بصحبتهن.

فهمت أستيرا أنها تقصد «بالمتمجرفات» «ذوات الخبرة» وفهمت من ذلك أنها لاتراها متمجرفة ولا ذات خبرة مع أنها للحظات تمنت لو تكون الصنفين لأن زاكاري يحب من النساء ذوات الخبرة ولكن السيدة كانت تنتظر رداً من أستيرا التي اشتعلت في كيانها الغيرة وكم ودت لو بقيت على جهلها بشأن صديقات زاكاري. قالت وهي تحاول بكلماتها أن تقفل هذا الموضوع:

- على زاكاري أن يحذر الهادئات.

لم ترد السيدة بل وجدت التعليق مسلياً فضحكت وهي ترد:

- أرى أن على ابني التيقظ بعد زواجكما!

بعدما تركت قاعة الطعام توجهت إلى غرفة الطفلة وراحت تساعد روزي ثم اصطحبت الصغيرة في نزهة.

تلاعبت الأفكار برأس أستيرا مع أن زاكاري كان يستحوذ على تفكيرها. تمنت مرة أخرى لو أن أمه لم تذكر أمامها صديقاته.. حين يلفت الغيرة أوجها في نفسها اضطرت إلى خوض معركة نفسية شكلت الثورة فيها قوات المعارضة.. ففكرت لبعض الوقت لو تعود إلى المنزل، لتعلن أن الزواج لن يتم.. وظلت هذه المعركة دائرة في كيانها حتى تذكرت أن إعلانها هذا سيكون فقط أمام السيدة نورتنغاتون، في حال كان زاكاري غائباً. لولا مثابرة السيدة نورتنغاتون ورفضها التخلي عن الموضوع، لما وجدت نفسها مخطوبة إلى ابنها ولن ينتهي الأمر بسهولة أبداً لو تجرأ أحدهما على التلميح بإنهاء الخطوبة.

عادت إلى المنزل مكرهة فحملت الطفلة إلى مخدعها ثم توجهت إلى غرفتها لترتب نفسها استعداداً للغداء. ومع هذا

تأخرت بضع دقائق وهي تسرع إلى غرفة الطعام.

فيما كانت تهم بفتح الباب، وجدت زاكاري يقف أمامها، فجأة، وهي ترفع نظرها إليه، تلاشى كل شيء من تفكيرها، ولم تعد تحس بشيء سواه.

ظنت أن هناك نظرة لطيفة في عينيه الرماديتين تحدق في وجهها. فخفق قلبها وتسبب حذرها من أن تفضح عيناها ما تخفيه وتذكرت أنه كان لطيفاً ليلة أمس عندما طلب منها أن تترك كل شيء له.

جفت حنجرتها وأحست بأنها تكاد تفقد الوعي لمجرد التفكير في أنها مخطوبة لهذا الرجل الرائع، العزيز، الذكي.

تابعت عيناه أسر عينيها بدفء وثبات، وشاهدت ابتسامة تلاعب أطراف فمه. مد يده إليها، فأحست فجأة بالارتجاف ولكن بالسرعة نفسها انطلقت أجراس إنذار صاخبة في رأسها، فخشيت أن يقرأ زاكاري في عينيها ما يجب أن يبقى مستراً مهما كان الثمن، آه، يا الله! هل كشفت نفسها؟

سمعت ممثلة مخبئة في داخلها تقول بمرح:

ـ هل أمضيت صباحاً ممتعاً؟

تجنبته ودخلت، فسقطت يده الممدودة إليها إلى جانبه.

فيما بعد، أدركت أنها إنما قرأت الدفء واللطف في عينيه، لأن هذا ما رغبت فيه وقد أدركت أن حركته في مد يده إليها لم تكن لا إرادية كما تصورت بل كانت حركة يقصد منها الإشارة بأن تسبقه إلى الداخل.

خطت بضع خطوات قرأت السيدة نورتنغاتون في الداخل، تقف مسترة. لم تكن رؤية مضيفتها هي التي أوقفتها، بل وجود شخص آخر.

كانت الريبة قد بدأت تتسلل إلى نفسها حين قالت السيدة مبتسمة:

ـ تذكرين الكاهن، السيد ميدسبرنغ، أستيرا؟

تقدمت تصافحه: «أجل، طبعاً».

كانت ترتجف حين جلسوا أربعتهم إلى المائدة. وسرعان ما أتضح لها سبب وجوده كما اتضح لها سبب غياب زاكاري عن الفطور صباحاً، فعلى ما يبدو أنه توجه إلى منزل الكاهن ليكلمه، وليتباحث معه بعض الأمور إضافة إلى دعوته للغداء.

سألت السيدة نورتنغاتون وهي تتناول الحساء بأناقة:

ـ هل سيتزعج والداك إن تزوجت في كنيستنا المحلية.. أستيرا؟

أخرستها الصدمة.. ولكنها فعلت ما بوسعها للمحافظة على رباطة جأشها.. وتمتمت: «لا، لا، لاأظن هذا».

أدركت أنها لم تفكر بأبويها إطلاقاً حين فكرت بالزواج أو بالطلاق فيما بعد. ولم تتح لها فرصة التفكير الآن لأن السيدة نابعت القول:

ـ لو شرحت لهما بأن كل عرائس عائلة نورتنغاتون يتزوجن في كنيسة سانت جايمس فسيتفهمان.

كانت تحاول استيعاب قولها حين استدارت السيدة نورتنغاتون، إلى ابنها:

ـ ستضطر إلى المبيت ليلة في «كاربنترآرم» زاكاري، كما فعل أبوك من قبل، هذا إن لم تكن ترغب في المجيء من لندن نهار الجمعة فوراً. لا تستطيع بالتأكيد المبيت ليلة الخميس في المنزل نفسه.

دار رأس أستيرا: «الجمعة!».

لا يعقل أن تتحدث السيدة العجوز عن هذه «الجمعة!» وطارت عيناها إليه ولكن الكاهن كان المجيب.

- نحن نتدبر أمر ترخيص خاص.. وهذا يمهلنا أربعة أيام كاملة.

لم تتمكن أستيرا من الاستيعاب، فنظرت مجدداً إلى زاكاري: «أنت.. نحن..» ولكنه بدا مستمتعاً فسألت الكاهن: «رتبتم الزواج نهار الجمعة القادم؟»

قاطعتها السيدة نورتنغاتون: «أليس يوم الجمعة مناسباً؟»

أدارت أستيرا رأسها إليه.. يا الله! سألت:

- ألا نتسرع قليلاً؟

- كان يجب أن يتم هذا الزواج قبل سنة.

- أجل. ولكن عليّ أولاً الحصول على إجازة ليوم الجمعة.

ما إن انتهت هذه المعارضة البسيطة حتى عاودت السيدة دورها التنظيمي:

- والآن.. أقترح حفل استقبال صغير بمناسبة الزواج.. وأعتقد أنك ستكونين سعيدة لمجيء والديك.

ولكنها لن تقدر على أن تطلب من أهلها حضور مثل هذا الزفاف. فماذا تقول لهما؟ أتقول إنها ستتزوج شخصاً لا يعرفانه ثم لن تلبث أن تطالبه بالطلاق.. هذا غير منصف..! لذا لن تدعو أهلها، خاصة وهي تعرف أن الجدة ستحضر حفيدتها ليراها جداها لأمها، وعندها ستتضح الكذبة فأهلها لن ينخدعوا أبداً لأنه لم يطرأ أقل تغيير على جسد ابنتهما في السنوات الأربع المنصرمة.

كادت أستيرا تسمع أمها وهي تنكر بسخط أمام السيدة نورتنغاتون: «لا أدري لمن هذه الطفلة.. ولكنني «واثقة» أنها ليست لابنتي» ولكن ما سمعته بالفعل كان سؤال السيدة لها وهو

سؤال لم تفهمه، فقالت:

- أنا آسفة.. لم...

اكتشفت أن أطباق الحساء أستبدلت، وأن زاكاري مشغول بالطعام، لكنه كان يصغي إلى الحديث فكرر طرح السؤال نيابة عن أمه:

- إن رغبت في مبيت أحد من أقربائك ليلة الخميس في منزل أمي فهي ستكون سعيدة بتحضير الغرف.

تمتمت أستيرا: «شكراً».

شعرت بإحباط شديد أمام الموقف كله وباتت عاجزة عن القيام بشيء.. نظرت إليه نظرة ضعف وقالت:

- لكن.. أنت تعرف سبب عدم قدرتي على دعوة أهلي..

رد مبتسماً: «طبعاً حبيبتي وأعتذر على نسيان الأمر، والدا أستيرا مسافران في الوقت الحاضر. ولن يعودا قبل وقت طويل».

- حسناً.. لن نستطيع انتظار عودتهما.. ولكننا سنؤخر عمادة ميرا حتى عودتهما لنعوض عليهما.

أخيراً انتهى الغداء، نهاية مرضية بالنسبة للسيدة نورتنغاتون، وكان هذا ظاهراً في ابتسامتها المرتسمة على وجهها. فلقد وجدت ما تفكر فيه غير ابنها الأصغر.. ثم اكتشفت أستيرا، بعدما اصطحبت السيدة الكاهن لتريه ورودها، أنها بقيت مع زاكاري، فسألته:

- فكرة من أن يكون الزفاف يوم الجمعة؟

تأمل وجهها المتجهم لحظة قبل أن يرد:

- كلما أسرعنا في الزواج، كلما ثبت حقك بالنسبة للصغيرة.

أدركت أستيرا أن لا فرق بين أن تتزوج يوم الجمعة أو بعد شهر، إلا إذا كانت متأكدة من عودة غوليت في غضون شهر.

ولكن ماذا بعد عودة غولبيت؟

لا شك في أنهما سينطلقان بعد أسبوع من عودة غولبيت، ولكن هذه الفكرة دفعتها إلى سؤال آخر.

ـ أمن الضروري الزواج بكنيسة سانت جايمس. أعرف أنها تقاليد العائلة. ولكن ألن يكون الأفضل لو تزوجنا مدنياً خاصة ونحن ننوي الطلاق في أسرع وقت.

عرفت أن زاكاري يفكر في السؤال ملياً، ومضت بضع لحظات قبل أن يجيب.

ـ إن كنت تريدين عقد الزواج في مكتب التسجيل أغير الترتيبات.

صمت، ولكن بدا أنه يريد إضافة شيء ما. ولأنه يخشى ألا تقبل ما سيقول امتنع. سألته:

ـ هل تذكرت ما يحول دون ذلك؟

ـ كنت أتساءل من منا سيقول لأمي إننا قررنا عقد القران في مكتب التسجيل المدني وتبعاً لهذا، سنكسر تقاليد عائلة نورتنغاتون.

تأوهت أستيرا: «آه، يا الله! دع الأمر على حاله. ستتزوج بالكنيسة».

عندما فتحت الباب أدركت مدى ارتباكها. كادت تقسم بأنه بدا سعيداً بنفسه حين سمعته يتمتم: بكل تأكيد.. عزيزتي.

* * *

٩ ـ ندم العروس

في طريق العودة إلى لندن، توصلت أستيرا إلى توافق مع ما لا تستطيع مقاومته، كما آمنت أنها تحررت من الارتباك الذي استحوذ عليها وقت الغداء.

ولم يمض وقت طويل على انطلاقهما، حتى عاودتها الشكوك. كانت الرحلة حتى الآن تسير بخير فزاكاري يتحدث بدماثة، ولعل أكثر ما يعزيها أنه بدا مسروراً رغم الورطة التي وجد نفسه فيها.

فجأة أخذت تتذكر مدى سعادته حين تركته بعد الغداء وهو يتمتم «بكل تأكيد عزيزتي» وكأنه بعدما حصل على ما يريد أصبح قادراً على الموافقة على جميع ما قد تتفوه به!

خفق قلبها فجأة لمجرد التفكير في أنه يريد الزواج بها إلى درجة عدم القدرة على الانتظار حتى يوم الجمعة! تحول خفقان قلبها إلى ضربات كثيرة لأنها تعلم أن هذه الفكرة أمنية ليس إلا. ولكن شيئاً من الشك تسلل إليها عندما رأته لا يظهر شيئاً من الغضب أمام فكرة تخليه عن حريته كما افترضت.

ازدادت شكوكها حتى اضطرت للتساؤل لماذا؟ تعرف أنه شيطان مخادع وأنها سارت مرة أخرى بكل بلاهة إلى فخه بدون أن تدري.

فكرت في الطريقة التي اعتمدها عندما طلب يدها فتذكرت أنه اقترح عليها ببساطة الزواج بسبب الضغط الذي لا يلين. ولقد ابتلعت الطعم! زاكاري معتاد على الضغوط وما من رجل يستطيع إدارة مؤسسة ناجحة بدون أن يكون قادراً على تحمل الضغوط اليومية في العمل. هل لرجل قادر على التعاطي مع عمل جبار، أن ينهار أمام هاتف يومي من أمه؟

قطع زاكاري عليها أفكارها ليسأل بلطف:

ـ أليس لديك سيارة أستيرا؟

ـ لا أجيد القيادة.

نظر إليها بحدة بعدما لاحظ لهجتها المتوترة، ومع ذلك ظلّ لطيفاً وأردف يقول لها:

ـ عليّ إنجاز بعض الأعمال الهامة يوم الخميس، لذلك، إن لم يكن لديك مانع، سأرسل أحد سائقي الشركة ليقلك إلى البيغ هاوس ذلك المساء.

ـ بمناسبة الحديث عن الأعمال الهامة.. أتسمح أن تخبرني بصراحة وصدق: «لماذا تريد الزواج بي؟»

كانت تنظر إليه أما هو فكان نظره منصباً على الطريق. ولكن بعد أن بدا أنه لن يرد، التفت إليها بسرعة وقال ببطء: «خلتك تعرفين».

ـ نعم خلتُ أنني أعرف، ولكنني أدركت للتو أنك معتاد على الضغط في عملك، بحيث لن تنثني أمام ضغوطات أمك.

ـ آه..

ـ ماذا تعني هذه «الآه» على أي حال؟

وللمرة الثانية لم يرد زاكاري فوراً وعندما رد تمنت لو امتنعت عن دحرجة مثل هذه الكرة.

ـ لم أذكر السبب من قبل لأنني لم أجد ضرورة إلى ذلك. أما الآن فأعترف لك أن هذا الزواج يناسبني كثيراً لأنني به سأتمكن من إعلان أنني رجل متزوج.

تركها رده في جهل مظلم كما كانت من قبل.. وكان أول ما فهمته أن السبب هو عملي.. ولكنها أبعدت هذه الفكرة.. إذن.. لا بد أن يكون السبب حياته الخاصة؟

تذكرت أستيرا، فجأة ما قالته أمه ذلك الصباح بالذات.. ولأن الغيرة انقضت عليها فلم تفكر إلا أن هناك صديقة جميلة متمرسة ذات خبرة.. وسألت:

ـ أتواجه مشاكل مع صديقتك في هذه اللحظات؟

انتظرت أملاً في الإنكار، لكنه اعترف:

ـ لقد أصبت الهدف، فزوج تلك السيدة هو أكبر مشكلة!

أحست بالغثيان: «أهي متزوجة؟»

ران الصمت في السيارة وشعرت بأنها لا تريد معرفة المزيد ولكنها أوشكت أن تصاب بالمرض بسبب معرفتها دوافعه للزواج. فذلك الدافع المهم هو الاستمرار في علاقة غرامية محرمة..

كادت تسارع إلى القول ألا يزعج نفسه بإرسال سائق ليقلها يوم الخميس، لأنها لن تتزوجه يوم الجمعة. ولكنها تذكرت في الوقت المناسب أن الأسباب الأخرى التي تحتم زواجهما ما تزال قائمة.

كانت الغيرة تتآكلها حين اكتشفت أيضاً حاجتها إلى معرفة مدى تورطه مع المرأة. هل هي مميزة؟ أم هي واحدة من صف طويل؟ سألت:

ـ هل.. أنت معتاد على الخروج مع نساء.. متزوجات؟ أعني.. أتقيم الصداقات مع العديد من النساء؟

وعندما لم يرد أدركت أنه ينظر نظرة خاصة إلى اتجاه

تفكيرها، فندمت على تطفلها.. فجأة، أدار رأسه إليها فرأت شبح ابتسامة على فمه:

- لهوت عدة سنوات أستيرا.. ولو كنت راغباً في حياة الرهبنة، لالتحقت بأحد الأديرة.

- نعم صحيح.

انتفضت عندما لم يجد زاكاري غضاضة في طرح السؤال نفسه عليها:

- وماذا عنك.. أمر بحياتك الكثيرون؟

فاجأها سؤاله وحارت بما تجيب وعندما همت بالإجابة حاولت أن تجعل صوتها هادئاً:

- الإنسان يعيش على الأمل.. ولكنني، وإن كنت ستستغرب الأمر، ما زلت عذراء!

صاح مذهولاً: «أنت.. ماذا؟ يا إلهي!»

تغيرت لهجته تغيراً دراماتياً، وأصبحت أكثر تزمتاً.

- ذكريني إذن.. أستيرا موفيت، بأن أخبرك بضع حقائق عن الحياة، في وقت ما.

استنتجت أنه يشير إلى تلك الليلة حين أظهرت رغبتها فيه.. قالت بجفاء: «ليس الأمر بضروري». والتفتت تنظر إلى الخارج.

راحت الغيرة تتآكلها طوال رحلة العودة. كانا يقتربان من شقتها عندما اقترح ببرود وجرأة:

- من الأفضل أن نقوم بالترتيبات لنقل أغراضك إلى شقتي. أستطيع..

صاحت تقاطعه: «لا داعي إلى أن نعيش معاً فزواجنا لن يلبث أن ينهار. لذا لا حاجة إلى نقل أغراضي».

اعتقدت أنها أقنعته، مع أنها لاحظت أنه لم يكن متحمساً

لمعارضة رغباته.. ولا شك في أنه ظن أن هناك سبباً لما قالته.. فهو لم يجادلها. بل قال:

- قد تزورنا أمي ولكن في حال حدوث هذا الأمر ساجد حلاً.

ولم تشك أستيرا في قدرته على هذا.. وأكمل:

- مع أنني، أعتقد أن من الخير لنا لو نسافر إلى مكان ما بعد مراسم الزفاف.

خذلها قلبها وأجبرها على القول:

- لا بأس، ما دمت سأعود إلى العمل يوم الاثنين.

رد بتزمت: «سيكون عملك في طليعة ما أفكر فيه».

ضحكت لمجرد المشاكسة: «دعك من السخرية نورتنغاتون».

وكأنما أعجبته ضحكتها، فضحك بدوره.

لكنها لم تكن تضحك حين فتح لها باب شقتها، وأعاد إليها المفتاح... فلو قال لها وداعاً وأضاف شيئاً مثل: أراك في الكنيسة لضربته!

لكنه لم يقل شيئاً من هذا القبيل، بل وقف للحظات ينظر في عينيها.. ثم، رفع يدها اليمنى إلى شفتيه، وطبع قبلة خفيفة عليها، وقال بصوت ناعم:

- لا تقلقي.. سيكون كل شيء على ما يرام أستيرا.

ورحل..

ورغم ذلك شعرت أستيرا بالقلق.

ذهبت إلى العمل يوم الاثنين فطلبت من السيد شلنجر إجازة يوم الجمعة ولكنه لم يظهر تعاطفه وكادت تقول له بسبب غضبها السريع الاشتعال مؤخراً «اذهب أنت ووظيفتك» ولكنه أخيراً وافق على طلبها، بعد أن أصرت بعناد:

ـ سأكون سعيداً حين تعالجين مشاكلك المنزلية.

وهذا بالضبط ما ستفعله.. ذهبت ذلك المساء إلى شقتها. وفي تمام السابعة، رن جرس هاتفها فرفعت السماعة خافقة القلب لعلمها أن المتصل هو زاكاري:

ـ اقبلي دعوتي إلى العشاء.

تصاعدت كلمات القبول إلى شفتيها ولكن الغيرة أرجعتها وقالت كاذبة: «لقد تناولت طعامي منذ قليل».

ملعونة هي لو رضيت أن تكون البديل عن عشيقته.

ـ تبدين.. متزمتة؟

ـ هذا لأنني متزمتة.

ووضعت السماعة، وندمت على ذلك.

أمضت معظم المساء، تحب زاكاري، وتشكو منه.. أخيراً أوت إلى الفراش، تكرهه، تكره منطقه، تكره خداعه، تكره حتى واقع عدم إصراره على انتقالها لتعيش معه. ووصلت غيرتها إلى الذروة.. لأنها متأكدة أن السبب الوحيد لعدم إصراره، هو إعادة التفكير، وإدراكه أن وجودها في مسكنه قد يغير نمط حياته وبعيقه. فهو رغم جرأته لن يستطيع اصطحاب عشيقته إلى شقة تعيش فيها زوجته.

استيقظت صباح الثلاثاء، ثائرة أكثر منها متوترة.. وظلت الثورة هاجعة في نفسها طوال ذلك الصباح. ولم تكن حتى ذاك الوقت قد فكرت في ما ترتديه لحفل الزفاف، وفيما هي حائرة أمام واجهة محل لثياب الأعراس، توقفت وسط الرصيف. ووجدت أمامها، أجمل فستان عرس طوله لا يتجاوز منتصف الساق.

أحست بغصة في حلقها.. وتلاشت ثورتها للحظات، لتحل محلها نظرة حالمة، كل ما استطاعت أن تراه فجأة، استدارة

زاكاري وانتظاره لها وهي تسير على ممر المذبح مرتدية الفستان المعروض.

ولكن الصورة تبخرت حين أحست بوخز يتجمع في مآقيها. ارتاعت لأنها شعرت بأنها ستجهش في البكاء في وسط المركز التجاري.

سرعان ما استعادت سيطرتها على نفسها حين عرفت أنها لن تستطيع ارتداء هذا الفستان على أي حال. فالفستان أبيض والأبيض بالنسبة للسيدة نورتنغاتون مرفوض. ولكنها ظلت تفكر فيه حتى عاودتها روح الثورة فجأة.. اللعنة..! هذا حقها.. ودخلت إلى المحل ثم خرجت منه وهي تحمل كيساً ورقياً ضخماً.

ظلت مشاعر الثورة متأججة حتى عادت إلى شقتها. فجأة، وهي تنظر إلى فستانها الجميل المعلق في الخزانة.. عرفت أنها لن تستطيع الاستمرار.. لكن لو كان زاكاري يحبها..

أبعدت أستيرا أفكارها بعيداً عما ليس من الممكن أن يكون أبداً. وحاولت أن تتذكر أين وضعت البطاقة التي أعطاها إياها زاكاري مرة وهي بطاقة تحمل اسمه ورقم هاتف منزله.. يجب أن تقول له وكلما أسرعت، كان أفضل.

بعد منتصف الليل توجهت إلى فراشها محبطة بسبب فشلها في الاتصال بمنزله فقد حاولت وحاولت وما من مجيب ومما لا شك فيه أنه الآن يلوّن الليل بالأحمر مع صديقته.

لم تنم تلك الليلة جيداً، ولم تنم كذلك في الليلة التالية وما تمكنت من الاتصال بزاكاري.. وحين اتصلت بمكتبه، كان في اجتماع، وحين اتصلت بالمنزل لم تجده.

حالما غادرت الفراش صباح الخميس أحست أن الوقت متأخر

على القيام بشيء. . فلا بد الآن أن السيدة نورتنغانون قد نظمت حفلة استقبال ما بعد الزفاف، ولا بد أن الكاهن قد حصل على الإذن الخاص. . وفي هذا اليوم شعرت بأنها منزعجة من فكرة الزواج وهذا ما لم يكن حالها في اليومين السابقين.

لم تدر ما إذا كان سبب هذه المشاعر هو حبها لزاكاري أم رغبتها في عدم فقدان أحقيتها في رعاية ميرا.

لم يمض على وجودها وراء مكتبها أكثر من نصف ساعة، حتى ثارت مشاعرها الهاجعة مجدداً. لماذا لم يتصل زاكاري بها؟ لا تنكر أنها أقفلت الخط في وجهه في المرة الأخيرة التي اتصل بها، ولكن، متى هذا. . .

أمضت ما تبقى من اليوم متوترة. قال زاكاري إنه سيرسل سيارة لتقلّها إلى «البيج هاوس» لذا كان أقل ما يمكنه فعله هو الاتصال ليقول لها متى تتوقع وصول السائق. . هذا إن لم يكن قد غيّر رأيه بشأن التخلي عن حريته.

منعها كبرياؤها من الاتصال به وغادرت عملها وهي في أقصى حالات التوتر. . إن لم يكن لدى زاكاري نورتنغانون الكياسة للاتصال بها. . حسناً. . فجأة اتسعت عيناها وطفقت تفكر بها. . هناك، أمام مسكنها تقف أروع سيارة فاخرة.

هذا غير ممكن! أم أنه صحيح؟ لم تشأ أن تعرض نفسها للسخرية بالتقدم مباشرة إلى السائق الذي يرتدي البزة الرسمية، لذا تظاهرت بأنها لم تره. تقدمت إلى باب المنزل. . وما إن أدارت ظهرها لتدخل حتى خرج رجل ممتلىء الجسم في أواسط العمر من السيارة خاطبها باحترام:

ـ عذراً سيدتي. . هل لي أن أسأل إن كنت الآنسة موفيت؟

ـ هل أرسلك السيد نورتنغانون؟

وابتسمت له ابتسامة طبيعية لم تبتسم مثلها منذ أيام.

بعد ساعة كانت أستيرا في مقعد الرولزرويس الخلفي في طريقها إلى «البيج هاوس» عاملها مالكولم السائق بدماثة، وقد أذهلتها خفته ورشاقته حين وثب من السيارة ليفتح لها الباب قبل أن تصل إلى حافة المقعد.

ـ شكراً لك مالكولم.

ـ تسرني خدمتك آنسة موفيت. . سأكون حاضراً لأقلك إلى الكنيسة في الصباح.

ـ وهل ستأتي خصيصاً من لندن؟

ـ بل سأبيت ليلتي في «كاربنتر آرم».

حاول مالكولم حمل حقيبتها والكيس الورقي إلى المنزل فأسرعت تقول له:

ـ سأحملها بنفسي، وداعاً.

وفيما كانت تجتاز جزءاً من الطريق المرصوفة بالحصى أدركت أن معرفتها بوجود زاكاري في مكان قريب يخفف من توترها.

ـ أستيرا!!

فتحت السيدة نورتنغانون الباب قبل أن ترن أستيرا الجرس.

ـ ادخلي عزيزتي.

شعرت بها تستقبلها بحفاوة. فدخلت غير متوترة. وعندما مضت الأمسية شعرت بأنها عضو مرغوب فيه في العائلة. . ليس لأن السيدة نورتنغانون تفيض عاطفة، بل بسبب السحر الصادق الذي تحدثت به طوال فترة العشاء.

والغريب في الأمر أن السيدة نورتنغانون لم تشر إلى الغد إطلاقاً ولم تتحدث مرة عن حفل الزفاف، أو عن ميرا. . كان

الموضوعان في الماضي بسبيان الانفعال ولربما رغبت السيدة في تجنب أي منهما، لئلا تتوتر العروس ليلة عرسها.

أمضت أستيرا ألطف أمسية مع مضيفتها وفي العاشرة والنصف، نظرت إلى ساعتها، لتعلن عن رغبتها في النوم.

- أترغبين في شراب قبل النوم..؟ حليب ساخن أو..

- لا شيء.. شكراً لك.

تركت أستيرا مقعدها، ولكن قبل أن تتمنى لها ليلة سعيدة رن الهاتف فتقدمت السيدة لترد.. لم تشأ أستيرا ترك الغرفة قبل أن تلقي تحية المساء.

التفتت السيدة تمد لها سماعة الهاتف:

- المخابرة لك.

وابتسمت.. كان زاكاري الشخص الوحيد الذي يعرف مكانها! تسارعت دقات قلبها، وتقدمت لتمسك السماعة قائلة: «آلو؟!»

تحملت وقفة طويلة قبل أن يأتيها صوت زاكاري العميق.

- أخبرني مالكولم أنه أقلك سالمة.

بدا وكأن وصولها سالمة يعني الكثير له.. فنسيت استعدادها يوم الاثنين والثلاثاء لإلغاء كل شيء. وردت عليه:

- ما دمت قد رأيت مالكولم فهذا يعني أنك وصلت إلى «كاربنتر آرم» سالماً كذلك.

- وصلت منذ برهة.

وهذا يعني أنه رفع سماعة الهاتف فوراً للاتصال بها. فجأة لاحظت أستيرا، أن كلمة الجنون لا تكفي.. ولكنها كانت مجنونة منذ صمت هاتف شقتها مساء الاثنين.

ردت بحدة: «عملت جاهداً بدون شك».

سرعان ما استولى عليها الرعب فصوتها بدا مشبعاً بالغيرة والخبث! ومر بها وقت ظنته سنة قبل أن يرد! قال ببطء:

- هل اعتقدت أنني كنت أمضي الوقت بالتمتع؟

- التمتع..؟

عرفت أنه لاحظ غيرتها. فأضافت كاذبة:

- لا أفهمك.. ألم نقل في المرة الأخيرة التي كنا فيها معاً إن عليك إنجاز أعمال مهمة. وبناء على قولك افترضت أنك ستبقى في مكتبك حتى وقت متأخر.. على فكرة.. هل سيقلك مالكولم إلى الكنيسة غداً أيضاً؟ آه، طبعاً، نسيت أن معك سيارتك.

- معي سيارتي، لكن.. من تقاليد عائلة نورتنغاتون أن يسير العريس من «كاربنترآرم» إلى الكنيسة يوم زفافه.

- وهذا تقليد ستحافظ عليه؟

- لا أستطيع سوى ذلك.

- أجل.. لن تستطيع.

فجأة شعرت بكلماته تضعف عزيمتها فخشيت أن تفوه بشيء بدون تعقل. فقالت بسرعة: «كنت أهم بالخلود إلى النوم».

- إذن تصبحين على خير حلوتي أستيرا.

وقبل أن ترد، أقفل الخط.

أطل يوم الجمعة مشرقاً مشمساً.. وعلمت أستيرا أن الوقت فات على التراجع خاصة بعدما دخلت السيدة نورتنغاتون بنفسها وهي تحمل لها فطورها.

شهقت أستيرا: «أنا..»

ولكنها أدركت أن تصرفها هذا أحد تقاليد العائلة، فقبلت متمتمة: «شكراً لك».

- شكراً لك أنت أستيرا.

وضعت الصبية على ركبتيها.. وكانت أستيرا تحاول فهم ما تعنيه بقوله «شكراً لك». غادرت السيدة نورتنغاتون وكان أمامها أطناناً من الأعمال التي عليها إنجازها.

مر الوقت ببطء، وأخيرا حان وقت ارتداء فستانها الأبيض. ثم تسارع الوقت فشعرها لم يكن مرتباً كما تريده، وماكياجها أيضاً، والأسوأ، أنها فكرت في أنها أخطأت بشراء ثوب أبيض.

أخيراً جعلت شعرها الأشقر اللماع يبدو كما تريد. ثم، وبعد طرقة خفيفة على الباب، دخلت السيدة نورتنغاتون وهي تحمل باقة ورود حمراء جميلة.. صاحت أستيرا:

- آه، سيدة نورتنغاتون!

- أرسلها زاكاري.

وأردفت بدون أن تظهر عدم موافقتها على الفستان الأبيض.

- تبدين رائعة عزيزتي.. أنا مضطرة للذهاب لئلا أتأخر.. سيصحبك مالكولم بعد دقائق.

استخدمت أستيرا ما لديها من قوة إرادة لئلا تبكي. بعد ذهابها همست ومشاعرها تكاد تخنقها وهي تنظر إلى الورود: «آه، زاكاري».

سحبت عدة أنفاس عميقة قبل أن تشعر ببعض الهدوء. حملت الورود ثم غادرت الغرفة، وما هي إلا دقائق حتى وصل مالكولم.

- صباح الخير آنسة موفيت.

ساعدها مبتسماً على ركوب الرولزرويس.

عندما وصلا إلى كنيسة القرية، كانت أستيرا تمسك بباقة الورد، وكأنها حبل النجاة. استقبلها الكاهن بحفاوة ولكنها لم تسمع ما قاله.

كانت صماء عن كل شيء ثم سرعان ما أصبحت عمياء عن رؤية الناس المصطفين على جانبي الممر وسارت برفقة الكاهن إلى حيث يقف زاكاري منتظراً. ثم أصبحت إلى جانبه، واستدار ينظر إليها.

رأته شاحباً قليلاً ومتوتراً كحالها هي، ثم لما التقت عيناها عينيه أدركت أنه سعيد لارتدائها الأبيض. كان في عينيه الإعجاب، واللطف.. تسللت إلى شفتيه ابتسامة وسرعان ما شعرت أنها أفضل حالاً.. فردت له الابتسام.

أنصت بوعود الزواج بحب وصدق وأفضى بوعود الزواج بصدق وعدم ادعاء.. لقد أقسم على الولاء بصوت واضح صادق.. كانت أستيرا أسعد مما كانت قط.. لكن هذا لم يدم طويلاً.

بعد توقيع العقد هنأتهما السيدة نورتنغاتون. ثم غادرت أستيرا الكنيسة متعلقة بذراع زاكاري. عندما خرجت وبعدما اعتادت عيناها على أشعة الشمس بدأت الأشكال الأخرى تتضح صورها، ثم فجأة تشوشت مشاعرها.

في البداية، ظنت أن المحتشدين جميعهم من القرويين ولكن بعدما اعتادت عيناها على النور القوي، تعرفت إلى امرأة ليست من القرويين بل ليست من أهل المنطقة.. إنها غولييت..!

لاحظت أستيرا المذهولة أن غولييت مشرقة وهي تحمل ميرا بين ذراعيها وأن إلى جانبها نايغل الذي بمائلها إشراقاً. أدارت رأسها إلى زاكاري وكأنها في فيلم بطيء الحركة تطلب تفسير ما يذهلها. ولكن زاكاري لم يكن ينظر إليها بل رأت أن عينيه لحقتا بعينيها ولاحظت أن وجهه تجهم عندما وقع بصره على أخيه.

تشتت بعينيها عن السيدة نورتنغاتون ولم يطل بها الأمر لأن

السيدة كانت واقفة على مسافة قريبة من غولييت ونايغل، مشغولة بآلة تصويرها، وعلى وجهها ابتسامة عريضة تكشف أن كل خطايا نايغل في الماضي مغفورة من قبلها.

ـ أعطني ميرا إلى نايغل، غولييت عزيزتي لألتقط صورته وهو يحمل ابنته!

ووصل صدى الكلمات إلى أستيرا..

وجدت أن السيدة نورتنغاتون تعرف حقيقة ميرا، ورأت غولييت وهي تناول الصغيرة إلى نايغل. فجأة أدركت أنها تزوجت زاكاري بدون سبب على الإطلاق!

تركت جانب زاكاري، مشتتة الفكر، ودنت من غولييت غير مدركة لما تفعل.

سمعت زاكاري ينادي: أستيرا..

صاحت غولييت، التي أسرعت لتلقاها في منتصف الطريق:

ـ أستيرا! تبدين رائعة حبيبتي.. لم أستطع مقاومة المجيء لرؤيتك وأنت تتزوجين.. أعرف أن زاكاري حذرنا من المجيء ولكن...

صاحت أستيرا بحقد: «ماذا فعل زاكاري؟»

ولكن زاكاري كان قد لحق بها، وكان هو من أجاب: «أستيرا.. أنا..»

تقدم نايغل ليقاطعه:

ـ أعرف أنك طلبت مني عدم الظهور ولكن..

التفت زاكاري إليه بحدة فصمت.

لمحت أستيرا تعابير وجه زاكاري، وعرفت أن نايغل أوشك أن ينال توبيخاً قاسياً. ولكنها لن تنتظر لتسمع.. وكانت السيدة نورتنغاتون قد وصلت لتمسك بتلابيب ابنها لئلا يتصادما في هذا

الوقت وهرعت أستيرا غاضبة غضباً لم تشعر بمثله قط.

يا الله ليس غريباً أن يطلب زاكاري من أخيه وغولييت عدم الظهور، فهو يعرف خير معرفة أن ظهورهما قبل الزواج سيلغيه حتماً! كان يعرف أن حقيقة بنوة ميرا قد انكشفت! الشيطان المحتال الماكر المتآمر.. إنه بحاجة إلى زوجة لتكون ستارة لعلاقة غرامية قذرة مع امرأة متزوجة.. ولقد مضى قدما في مراسم الزواج، ليس من أجل أمه أو من أجلها هي بل من أجل مصلحته هو.

فتح السائق لها الباب حالما شاهدها تركض نحوه. ذكرته أستيرا بسرعة:

ـ لقد طلب إليك أن تنفذ رغباتي.. وأنا أرغب في أن تصحبني بسرعة إلى لندن.

انطلقت الرولز في الوقت الذي اقترب فيه زاكاري فأنزلت النافذة ورمته بوروده.

وفيما كانت تقفل النافذة لمحت وجوه الناس الدهشة، وهذا ما سرّها. لقد استغفلها زاكاري نورتنغاتون.. ولقد حان الوقت ليظهر هو بمظهر الأبله.

* * *

١٠ ـ الوقوع في الأسر

كانت أستيرا ما تزال تشتعل غضباً حين توقفت الرولز خارج مبنى شقتها. قالت للسائق وهو يساعدها على النزول:

ـ شكراً لك مالكولم. لقد سجلت رقماً قياسياً في الوصول.

ـ من يقود سيارة كهذه.. سيدة نورتنغاتون لا يقوم بأي مجهود.

خفق قلبها لأنه خاطبها بالسيدة نورتنغاتون، وصدمت فجأة بحيث لم تجد كلمات ترد بها سوى «وداعاً».

أسرعت إلى شقتها وهناك سارعت إلى خلع ثوب عرسها وإلى تمزيقه. كان غضبها ينصب على زاكاري أشد انصباب. رمت الفستان الجميل ثم ارتدت سروالاً وقميصاً. لقد وقعت في فخه راضية، وتزوجت ذلك الجرذ القذر.

ولكن ما كادت تنعته بالعديد من النعوت حتى تسلل إلى أفكارها سؤال عن غولييت ونايغل اللذين لا تعرف منى وصلا، كانت واثقة من أن السيدة نورتنغاتون علمت بالحقيقة قبل يوم الزفاف. وهذا ما يفسر امتناعها عن التحدث عن الطفلة مساء الأمس. لقد خشيت أن يزل لسانها فتكشف معرفتها بأن غولييت هي أم حفيدتها.

وما زاد الأمر غموضاً هو دافعها إلى تجنب موضوع الزواج

أيضاً.. من الواضح أن زاكاري اتصل بها، ولكن ماذا قال لأمه حتى صمتت؟

كانت متأكدة من أنه لم يقل لأمه الدافع الحقيقي للزواج بها. فهي تعلم نظراً لمعرفتها الوثيقة بمقاييس السيدة نورتنغاتون الأخلاقية أنها ما كانت لتوافق أبداً.

عرفت أنها لو تركت غضبها يتلاشى، لاستسلمت للبكاء.. فتابعت غيظها بصمت زاكاري.. وتساءلت عن أسرع سبيل لإلغاء الزواج.

كانت تفتش في دليل الهاتف عن اسم محام حين دق بابها. لم يكن مزاجها يسمح لها باستقبال الزائر مهما كان. ولكن ربما كانت روبيلا في الباب، وروبيلا امرأة عاونتها كثيراً في الماضي لذا لن تتركها هناك واقفة.

وتقدمت تفتح الباب ثم سرعان ما فغرت فاها.

أدركت أن زاكاري لم يسرع فقط للحصول على سيارته من «كاربيترآرم»، بل قادها بجنون أيضاً، فارتدت بحفاء أما هو فلم ينتظر دعوتها بل دفعها خطوة أخرى إلى الوراء وتقدم إلى الأمام ثم أغلق الباب خلفه.. كانت تصرفاته طبيعية وصوته رزيناً، حين سألها: «لماذا فعلت ذلك في الكنيسة؟»

زادت وقاحته غضبها فتمنت لو رمت عليه خاتمه بدل تلك الورود. انتزعت الخاتم من أصبعها وقالت بحدة:

ـ أشكرك لأنك أعرتني إياه ولكن..

قاطعها آمراً بحدة: «ارجعيه إلى اصبعك».

ـ والله.. لن أرجعه! ربما وعدت بالطاعة ولكن هذا كان سيحدث فيما لو دام الزواج أما الآن فانتهى نورتنغاتون! ولو وصلت بعد خمس دقائق لوجدت المحامي قد بدأ بالإجراءات بناء

على تعليماتي.. كنت أفتش عن محترف قانوني حين طرقت بابي.. ولو عرفت..

قاطعها: «إذن، وفرت عليك مشقة لا لزوم لها».

- لا لزوم لها؟

- أنت زوجتي أستيرا نورتنغاتون، وستبقين زوجتي.

ألا حدّ لجرأته! صدمتها وقاحته وجعلتها مسمرة ثم لم تلبث أن استردت رشدها وقالت:

- أنت تمزح؟ كان الطلاق جزءاً من اتفاقنا.

- ومتى قلت لك إنني أوافق على الطلاق؟

حدقت إليه مصدومة مذهولة ثم أردف قائلاً:

- لن أطلقك أبداً أيتها الزوجة واعلمي أن ما من أحد بمن فيهم أنت، قادر على أن يطلق فرداً من أفراد نورتنغاتون.

ومن يظن نفسه هذا الرجل؟ فكرت أن الوقت قد حان ليقول أحدهم لزاكاري نورتنغاتون ان الله لم يعطه الحق المكتسب ليعلن ما يريد وما لا يريد، متوقعاً من الجميع الانحناء أمام رغباته.. فقالت بحدة لاذعة:

- لقد قررت أن أؤسس تقليداً جديداً لعائلة نورتنغاتون.

- لقد فعلت.. ليس في سجلات العائلة ما يظهر أن عروساً فرّت حتى قبل التقاط صورة عرسها!

صاحت بجنون: «أخلتني أبقى وأنا أضع على ثغري ابتسامة عريضة؟».

- أعرف أنك متكدرة.. وأعترف أنك معذورة لكن..

سخرت منه: «يا لنبلك!»

- إنما لدي تفسير لكل أفعالي.

- لقد سمعته! كان تفكيرك منصباً على عشيقتك. وكنت

بحاجة إلى الزواج لـ..

قاطعها بهدوء: «أوافقك الرأي، كنت بحاجة إلى الزواج بك.. إنما هناك تفسير آخر لا تعرفين عنه شيئاً».

- تفسير مخادع كالعادة.

- ما دام علي الاعتراف فمن المستحسن أن نجلس لأن ذلك سيستغرق وقتاً.

سألت ساخرة: «أواثق أنك لن تحتاج إلى القهوة أيضاً؟»

رفضت الجلوس كما رفضت سماع تعليلاته وقد قابل رفضها العنيد بصمت.. فجأة ولو على مضض، وجدت نفسها تتمتم: «هل ستكذب علي؟»

- لن أقول إلا الحقيقة.

- و.. لن يكون هناك خداع.

- أعدك.

أخذت على مضض أقرب مقعد لها. وكان الأريكة. حين انضم إليها زاكاري، كادت تقف مجدداً فسيكون لقربه تأثير كبير فيها، ولكن خشية أن يلاحظ تأثرها دفعت نفسها للبقاء في مكانها.

- حسناً.. فسّر لي.. فإن لم يكن السبب عشيقتك فما هو إذن.. علمت بعودة غوليت ومع ذلك لم تخبرني ولم تتعمد هذا فحسب، بل حين عرفت أن الورطة قد حلت، تركتني أمضي قدماً في هذا الزواج وإياك أن تقول لي إنك لم ترَ غوليت ونايغل حتى اليوم.. فقد سمعتهما يقولان إنك طلبت منهما عدم الظهور في الكنيسة.. وهذا يعني أنك رأيتهما قبل اليوم!

توقعت منه أن يرد عليها باختصار وحدة. ولكنها دهشت حين رد بهدوء:

- قلت إنني لن أقول إلا الحقيقة أسيرا.. وهذا ما سأفعل. أبدأ بنايغل الذي رأيته يوم الأربعاء..

- الأربعاء! عرفت منذ يوم الأربعاء أن نايغل و.. وفيما كنت أسعى جهدي لإلغاء كل شيء كنت...

- وهل حاولت الاتصال بي يوم الأربعاء لإلغاء الزواج؟

- والثلاثاء أيضاً ولكنك كنت مشغولاً ولم ترد..

يا الله! أظهرت عليها ملامح الغيرة؟ وابتلعت ريقها. تسللت ابتسامة إلى فم زاكاري. غير أنها لم تجد ابتسامته محببة.

- كنت مشغولاً يومي الثلاثاء والأربعاء، بأمور في «البيغ هاوس» ولكن.. كان من الخير أن أمي اتصلت بي يوم الثلاثاء.. وهي في غاية الانفعال.

أيعني أن غيابه عن الشقة أنقذه من إلغاء الزواج؟ ردت بجفاء:

- أفهم حالة أمك فهي كانت دون شك مرتبكة لظهور نايغل وغولييت ومطالبتهما بالطفلة التي تعتقدها ابنتنا.

- كانت أمي تعرف الحقيقة حتى قبل ظهور نايغل وغولييت، فهما لم يصلا إلى منزلها يوم الأربعاء.. وكانت تعرف الحقيقة يوم الثلاثاء.

- وهل أخبرتها؟

- لقد تكهنت بطريقة ما.

- تكهنت! ولكن كيف..؟ أنا لم أظهر لها شيئاً.. وأنت.. أنت أذكى من أن تفشي شيئاً.

تقبل تعليقها اللاذع وأردف يقول:

- يبدو أنها بعد حصولها على أمنيتها بزواجنا راحت تفكر في بعض الأمور بصمت. اتصلت بي يوم الثلاثاء تقول إنها سعيدة

لأننا سنتزوج ثم لمحا أضافت أنها تصدق أن نايغل قادر على إنجاب طفلة غير شرعية أما أنا فلا، بدأت أشم رائحة المتاعب.

- أبسبب هذا الكلام فقط؟

- بل السبب أكثر من هذه الكلمات. مجرد ذكر اسم نايغل لأول مرة منذ شجارهما أعلمني أن هناك ما تخبئه.

- ماذا إذن؟

- أشارت إلى أن نايغل ورث التصاق أصابع قدم آل شالفونت.. عكسي أنا.

- أصابعك غير ملتصقة؟

هز رأسه نفياً:

- ثم تابعت الكلام بانفعال قائلة إن من الغريب أن ترث ميرا أصابع شالفونت من عمها بدل أبيها وعندها وجدت أن علي إخبارها الحقيقة.

- هاتفياً؟

هز رأسه نفياً مرة أخرى:

- لم أرد قول شيء أبداً. ولكن حين سألت ما إذا كنت تعرفين أنت نايغل لم أستطع السكوت. فقلت لها إنني قادم إليها.

قفز قلب أسيرا لاعترافه بأنه هبَّ لحماية سمعتها ومع ذلك رفضت أن تلين فما زال أمامه شرح كبير.

- وكان أن ذهبت إلى رؤيتها فكيف استقبلت الأمر؟

- كانت مستعدة لمعرفة الحقيقة قبل أن أؤكدها لها. في ذلك الوقت لم أكن أعرف أن نايغل وغولييت معاً، وما كنت أعرف مكان تواجدهما لكنها سرعان ما سألت: أين هما والدا ميرا؟ فقلت لها شيئاً مما أخبرتني إياه عن طفولة غولييت

البائسة.. فأشفقت عليها، وعندها أخبرتها بأنها هربت وأن نايغل هرب ليبحث عنها.. ولم أكن أدري كم أنني قريب من الحقيقة.

- وهل كان يفتش نايغل عن غوليت؟ لكنه لم يعرف باختفائها..! ألم أخبرك كم سعيت للاتصال به بدون جدوى. أخبرني إذن! كيف عرف بفرارها؟

تأمل زاكاري تعابير وجهها، ثم قال ببساطة: «منك أنت».

- مني أنا! لا تقل هذا! فلم أكن أعرف مكان عمله.. فكيف يمكن أن...

قاطعها:

- سمعت أنك كنت قلقة على صحتها لأنها كانت مصابة بانقباض نفسي بعد الولادة فقصدت طبيبها الدكتور ڤيدل. هل هذا صحيح؟

أصابتها الدهشة فهو لا يعرف فقط أنها ذهبت لرؤية الطبيب بل يعرف اسمه أيضاً!

- لم أذهب لرؤيته بسبب غولي.. بل كنت قلقة على ميرا التي لم تكفّ عن الصراخ ولكنني أخبرته في سياق الحديث بفرارها كما نعت أمامه نايغل بالجرذ القذر ولكنه لم يقل لي شيئاً عن معاناتها من انقباض نفسي إثر الولادة.. يا الله! لو عرفت لطلبت من الشرطة أن تبحث عنها.

قاطعها بهدوء: «لم تكن مصابة بانقباض.. لكن الطبيب انزعج مما قلته ولم يرغب في المخاطرة فقرر أن صدمة نفسية لن تضر أختي».

- اتصل به؟

- كان اسم نايغل، وعنوانه، ورقم هاتفه مدونة في ملف غولي.. ومن حسن الحظ أن نايغل كان يعاني من عذاب الضمير

وكان حتى قبل أن يتصل الطبيب به يقاوم اندفاعاً يحثه على الذهاب إليها. حين اتصل الطبيب وأثار مخاوفه على سلامتها، قائلاً إنها أصيبت بانهيار هستيري دفعها إلى الاختفاء أصبحت غيرته من ابنته بدون قيمة.

- وهل كان يغار من ابنته؟

- نايغل معتاد على التدليل. وأحس أن أمه نبذته كما أحسّ أن غولي تهمله لأنها لم تنفكّ عن التحدث عن حملها بلا انقطاع.

تمتمت: «يا الله! تابع وماذا حدث بعد ذلك؟»

- بعدما دس الطبيب في نفسه الخوف، راح نايغل يبحث عنها وشكّ في أنها قصدت أحد الأمكنة ووجدها.

- أكانت هناك؟

هز رأسه:

- أصيب نايغل بصدمة بسبب شحوبها وضعفها، وطلب منها الزواج فرفضت.

- رفضت؟ ولكنها تحبه! إنها..

- تحبه طبعاً، وإلا لماذا وافقت على اقتراحه الثاني.. وهو قضاء عطلة قبل أن يفترقا نهائياً..

- وهل أمضيا عطلة معاً؟

كانت كل جملة يقولها تفاجئها أكثر من سابقتها!

- اعتبر نايغل العطلة وسيلة للتعويض عما أصاب غوليت وفيما كنت تمزقين نفسك لتدبر أمر الطفلة كانت غوليت تقضي العطلة مع نايغل في جنوبي فرنسا.

- إذن.. هو يحبها حقاً؟

- باع سيارته ليدفع كلفة الرحلة، واستأجر غيرها، وهذه خطوة لا يفعلها عادة.

ـ أكمل.

ـ وفيما كانا راجعين إلى لندن اقترحت عليه الذهاب لمصالحة أمه.

ـ لا ريب في أنه أخبرها عن شجارهما.

ـ صحيح ولكنه أصر على أن ترافقه.

ـ وقبلت، وكان أن وصلا نهار الأربعاء. أي في وقت كانت تعرف فيه أنهما والدا ميرا.

ـ هذا صحيح.

لم تفارقها عيناه لئلا تفوته معرفة ما يطوف في رأسها.

ـ بعد انتهاء التحيات والاعتذارات وما إلى ذلك.. أحس نايغل بالسعادة لأنه حمل طفلته بين ذراعيه، وسأل غولييت كيف تفكر في ترك ابنتها بدون أب وبكت غولييت ووافقت على العودة إليه والزواج به.

توقفت هنيهة عن الكلام ثم أضافت:

ـ إذن.. انتهت القصة بسعادة جميع أفراد عائلة نورتنغانون.. ومن الطبيعي، ألا يفكر أحدكم في الاتصال بي لإخباري بما حدث.

ـ بل فعلوا.. ولكنني اضطررت إلى نزع شريط الهاتف لأمنع غولييت من الاتصال بك.

ردت ساخرة: «كان عليّ أن أعرف ذلك! وما نوع الخداع الذي مارسته لمنعها من مخابرتي؟ ألم تقل لي إنك كنت مشغولاً بأشياء خاصة في «البيج هاوس» يومي الثلاثاء والأربعاء؟»

ـ عندما كان نايغل وغولييت في مخدع الطفلة اتصلت بي أمي تخبرني بأنهما في المنزل.

شهقت بدون أن تصدق:

ـ لقد زودتك بالمعلومات إذن..! يا الله! قلت لأمك الحقيقة يوم الثلاثاء! وهذا يعني أنها عرفت أن لا داعي للزواج.. أتحاول القول إنها لم تحاول بعد معرفتها الحقيقة سؤالك عما إذا كان عليك إلغاء طلب قالب الحلوى؟

رغم حدة غضبها المشتعل في عينيها، رفضت أن تشيح نظرها عن نظرة زاكاري الثابتة عليها. وحين بدا عليه التردد رغبت في معرفة ما يدور في رأسه، ولكنها ترفض كل الرفض رداً مراوغاً.

أخيراً رد عليها ببطء:

ـ لن تكوني المرأة التي أعرفها إن لم تطرحي بضع أسئلة عن الموضوع.

ـ أسئلة عن الموضوع تعني بالطبع أنك أجبت بدون الكشف عن دافعك الوحيد للزواج بي ألا وهو عشيقتك المتزوجة.

تردد مرة أخرى قبل أن يقول بهدوء:

ـ في الواقع لا وجود لعشيقة متزوجة.

صدمها ما لم تتوقع سماعه، فنظرت إليه تسأله:

ـ إذن، هي غير متزوجة؟ لكنك قلت لي..

ـ انسي ما قلته لك.. أعترف أنني كذبت، ولكنني منذ الآن فصاعداً أعدك بألا أقول إلا الحقيقة.

ـ أنا بعيدة كل البعد عن منع شخصيتك الجديدة من البروز.. إذن إمّا تخلصت عشيقتك من زوجها وإمّا تطلقت وإما لم تكن متزوجة.

ـ ليست لدي عشيقة أرملة، أو مطلقة، أو عزباء.. فمنذ التقيت بك أسيرا لم أجد الوقت لإقامة علاقة مع امرأة.

رأت نظرة دفء في عينيه.. وسمحت لنفسها أن تصدقه ولكن لم تلبث أن عادت دقات قلبها إلى رتابتها فقد تذكرت أنه

كان يمضي عطلته الأسبوعية مشغولاً بإيصالها إلى البيغ هاوس وعمله هذا هو ما لم يترك له الوقت لإقامة علاقة مع امرأة.

- إذن، لماذا تابعت ترتيبات زواجنا اليوم؟

لم ينتفض دهشاً بل هي من انتفضت حين رد عليها:

- تزوجتك اليوم أسْيرا.. لأنني اضطررت.. تزوجتك لأن الزواج بك كان أغلى أمنية على قلبي.

جف حلقها. ولم تعد قادرة على الكلام، وبحثت في عينيه اللتين كانت تبحثان أيضاً عن بعض التشجيع في عينيها.. لم تعرف كم من الوقت مضى وهي متأرجحة بين تصديقه وعدمه، ولكن قلبها تابع خفقانه بصوت مرتفع حتى ظنته يسمع خفقانه. كان جزء من عقلها يتحرك للبدء بجدال: إنه ينوي شيئاً.. فلا تصدقيه..!

أشاحت بصرها عنه لأنها لا تستطيع التفكير بشكل سوي إلا إذا أشاحت بصرها عنه. لحظتئذ عرفت أن ذروة الغباء أن تصدق ما قاله.. فالتجارب السابقة علمتها أنه سيتقن المراوغة.. فتمتمت:

- يجب أن يكون ردك جيداً.. أعتقد أن لديك تفسيراً منطقياً حاضراً لكلامك الأخير.

لم تعجبه لهجتها، أو تصرفاتها:

- ليس هناك ما هو محضر سلفاً في ما قلته.

- إذن زلّ لسانك..! أنت تفكر عادة أسرع مما..

- ليس في الأمر زلة لسان بل مسألة «وقوع».

علمت أنها مضطرة للحذر فيما يختص به.. مع أنها تحس بالارتباك:

- أفضل الحصول على القليل من الألغاز، والكثير من

الوقائع.

قال متوتراً: «أنت لا تسهلين علي الأمر أسْيرا».

ردت بقسوة: «عظيم».

لكن قسوتها كانت زائفة لأن مشاعرها تجاهه حالت دون إظهار القسوة.

- ما رأيك لو تبدأ منذ البداية؟

- ولِمَ لا؟

وفاجأها بأنه بدأ منذ اليوم الذي قصدت فيه مكتبه.

- لكي أبدأ، أقول، لم يقتحم قط مكتبي حزمة شقراء من الديناميت، التفتت إليّ وهاجمتني.. وهذا ما لا ينساه الرجل بسهولة.

- أنا.. أحب.. أن أترك علامتي..

- وهذا ما فعلته بدون أدنى شك.. أعترف، أسْيرا، أنني لم ألتق قط بامرأة مثلك.

- أحاول دائماً أن أكون مختلفة.

- أنت لا تحاولين شيئاً لأنك هكذا. ذلك اليوم لم تبرحي أفكاري، إلا بعد وقت طويل على مغادرتك المكتب.

- بسبب الطريقة التي ضربتك بها؟

- هذا ما قلته لنفسي.. ولم يكن هناك حد لخداع النفس الذي تبنيته في الأيام الأولى على معرفتي بك.

قاومت بجنون لتجعل صوتها هادئاً وهي تسخر:

- حقاً؟

ولكنه رد على سخريتها بهدوء:

- حقاً.. فقد بقيت في اليوم التالي تحتلين أفكاري.

استجمعت شتات أفكارها لترد:

ـ وجئت إلى هذه الشقة ذلك اليوم، لأنك اكتشفت أنك لا تستطيع التفرج بدون فعل شيء لمبرا.

ـ هذا صحيح.. لكنني أدركت بعدما تركتك أن هناك قوى تعمل في داخلي لا أعرف كنهها.

ـ أما عرفت ما هي تلك القوى؟

ـ لم أرغب في الاعتراف بها حتى بعدما عرفتها.. بدا لي أنه طبيعي أن أعجب بشجاعتك خاصة وأنا أراك تقومين بما في وسعك لإبقاء ابنة أخي سالمة من أجل صديقتك.. وهكذا تهربت وقاومت الشعور الذي شعرت به تجاهك ورفضت أن أسميه.

ذكرته: «قلت يومذاك إنني أعجبتك».

رد بنعومة: «فعلاً، فلك قلب رقيق، أعجبتني طريقة ابتسامك، وطريقة ضحكك. كما أعجبتني طريقة تعجرفك وتهجمك».

صاحت بعجب: «وهل أبدو متعجرفة أحياناً؟»

ـ ألا تعرفين ذلك؟

هزت رأسها نفياً.

ـ فكرت دوماً في أنك شيطان متعجرف.. لكنني لم أكن أعرف..

ابتسم زاكاري: «لو كنت رجلاً أقل صلابة لهربت من نظرتك المترفعة فهل في إعجابي بك أو في اشتعال قلبي حباً لك ما يدعو للغرابة؟».

اتسعت عيناها من فرط الصدمة وتسللت الرجفة إلى جسمها:

ـ هل.. قلت.. إنك.. إنك تحبني؟

ـ أجل.. أنا أحبك.. في البدء لم أعرف إلا أنني أحسّ بإحساس ما في داخلي حين أكون معك. قاومت هذا الإحساس

الذي كنت تثيرينه بي.

مد يده ليمسك يدها، وبدا متشجعاً حين شعر بارتجافها:

ـ كنت أقنع نفسي بأنني متمتع بعزوبيتي، ولكن حين سيطرت على أفكاري في جميع الأوقات أدركت أن عليّ القيام بشيء ولا يهم إن كان ما سأعتمده المراوغة والخداع. كان يجب أن أتخذك زوجة.

سألت مرتجفة: «تزوجتني لأنك تحبني، لا لأنك تريد أن تستمر علاقتك مع عشيقتك؟»

رد بحدة: «ليس عندي عشيقة فأنا..»

فجأة، فقدت القدرة على سماع المزيد فما دام قادراً على الكذب في هذا فهو قادر على الكذب في كل شيء! انتزعت يدها منه بسرعة وقالت:

ـ إن من يصدق كلامك كمن يصدق قصة بابا نويل. لقد استغليتني في سبيل مصلحتك منذ البداية وأرفض أن تستغلني مرة أخرى.. ولا تهمني دوافعك..

ـ دافعي الوحيد..

قاطعته: «سأعرف دافعك الوحيد مع مضي الوقت».

فجأة، ظنت أنه يعرف شيئاً عن مشاعرها، وإلا لماذا يتخذ حبه المزعوم دافعاً؟ وهكذا وجدت أن السخرية أفضل غطاء لها:

ـ أفهم الآن أنك تقول ذلك لي لأنك لم تقله.. أثناء مراسم الزواج ولكن اعلم أن عروسك غير مهتمة أبداً.

ـ لكنك لم..

وصمت فبدا فعلاً مصدوماً.

ـ لم أجرؤ على المخاطرة.. كنت أحبس أنفاسي خوفاً من أن تندفع أمي للاتصال بك.

دهشت وسألت:

ـ وهل ظننتها ستتصل بي لتقول لي إنها تعرف كل شيء؟

ـ لقد جعلها عرفانها بجميلك تقدم على الاتصال بك يوم الثلاثاء.

شهقت أستيرا: يا الله! إذن هذا ما قصدته بقولها «الشكر لك»! ولكن، هل منعتها من الاتصال بي؟

ـ نعم.. قلت لها إن كانتي تحبني، وترغب في أن يلبي ابنها البكر رغبات قلبه، فعليها ألا تتفوه بكلمة أمامك عن اطلاعها على الحقيقة.

فجأة وجدت أنها لا ترغب في الاستماع إلى التحذير الذي يطلقه عقلها.

ـ أنت.. أنت.. هل تخبرني ماذا قلت عدا هذا لأمك؟

ـ قلت لها إنني أحبك.. وقلت لها قبل كل شيء إنني أريد الزواج بك، وحذرتها من أن تدمر كل شيء بكلمة منها.

ارتجفت أستيرا مجدداً.. وتعاقب السؤال إثر السؤال إلى فكرها.. وكان عليها أن تبتلع ريقها بصعوبة مجدداً لتسأل:

ـ وهل وافقت أمك على الصمت، هكذا بكل بساطة؟

رد بشيء من الابتسام: «أنت تعرفينها جيداً وهي ما وافقت على عدم التدخل إلا بعدما أجبت عن أسئلتها كلها. لقد اتصلت بي فور عودة نايغل وغولييت».

ـ وذهبت إليها عقب مخابرتها مباشرة؟

ـ نعم أسرعت في الذهاب وهناك التقيت بغولي ونايغل الذي بدا لي أنضج وأقدر على تحمل المسؤولية وبعدما رأيت ما رأيت أخبرتهما أنني التقيتك من خلال ميرا، أما غولييت فابتهجت كثيراً عندما قلت لها إننا سنتزوج و...

ـ قلت إنك اضطررت لنزع شريط الهاتف لمنعها من الاتصال بي.

ـ وهذا ما فعلته.. لقد ادعيت أمامها أنك مرهقة بسبب العناية التي كنت تبذلينها لميرا ثم أقنعتها بأنك مشغولة بحيث لا تستطيعين التحدث هاتفياً.. وحين قالت إنها ستتصل بك في المكتب ادعيت أنك تركت العمل وإنك تقيمين في منزل بعض أصدقائي.

ـ كذبت عليها؟

ـ من أجلك، أستيرا نورتنغاتون، لأتزوجك اليوم.. كنت مستعداً للكذب على أي إنسان.. ولكنني لا أكذب عليك الآن ولن أكذب أبداً.

كانت أستيرا مستعدة للقبول ولكنها عرفت أن هناك ما تود معرفته.. لذا حين أمسك زاكاري بيدها، بذلت جهداً لتذكر ما هو السؤال.. فأشاحت بوجهها عنه.

ـ حاولت منعهما من الظهور اليوم.. فكيف..

ـ ظننت أنني سأنجح.. وبما أنني عرفت أن نايغل لا يملك المال اتخذت مما سيباه لك ذريعة لأقول إنك قد لا ترغبين في رؤيتهما يوم الزفاف.. وقلت له إنني سأعيد توظيفه شرط أن يبعد غولييت أثناء حفل الزفاف.

سألت: «وهل وافق؟»

ـ وافق بسرعة البرق. فحجز غرفة في فندق، وتركا الطفلة في المنزل. عندها خلتني تغلبت على عقبة أخرى.

ـ لكنك، لم تتغلب على آخر العقبات.

ـ كنت سأفشل لولا قوة حب نايغل لغولييت.. فبعدما أسرعت بالانطلاق بالرولز، فتشت عن وسيلة نقل ووجدت نايغل

أمامي ففتح لي باب سيارته وانطلق بي لأصل إلى سيارتي التي هي أسرع من السيارة التي استأجرها. وقال لي معتذراً بأنه بعدما عامل غوليت بقسوة، لم يستطع رفض رغبتها في المشاركة بحفل زفافك.. فهل يستطيع الاحتفاظ بالوظيفة التي عرضتها عليه؟

ـ وماذا قلت له؟

بدا متوتراً فجأة:

ـ قلت له إنني إن فقدتك.. فليترحم على الوظيفة!

تنهدت بأسى: «آه، زاكاري!»

ـ أيعني هذا أن أمامي فرصة؟

صدمتها العاطفة الجياشة في صوته.

ـ قولي لي حباً بالله.. هل خسرت كل شيء بتصرفاتي أم أن هناك أمل بإيجاد الحب الذي رأيته مرة في عينيك وهل كان محض خيال ما رأيته؟

ـ أنت.. لم تتخيل شيئاً.

ـ أتشعرين بشيء نحوي عدا الكراهية؟

ـ وهل يمكن أن أتزوج رجلاً أكرهه؟

ـ وهل..؟

ـ أحبك!

فجأة كانت بين ذراعيه.. وتنفس: «بالله! كم عانيت بسببك!»

ارتدّ عنها فرأى عينيها تهيمان به.

ـ لا تجعليني أمر بأوقات كهذه مرة أخرى.

وشدها إليه ثانية.. فوعدته: «لن أفعل».

ـ لم أتوتر هكذا منذ طفولتي.

أدركت ما مر به خوفاً من ألا تكون قد وقعت في حبه. قال

بعذوبة:

ـ آه، يا حبي الجميل.. لا فكرة لديك عن العذاب النفسي الذي عشته.

سألت مرتجفة: «عذاب؟»

ـ عذاب حبيبي.. فأنا لم أفهم ما كان يصيبني في البدء.. فقد حدث كل شيء بسرعة.. ذلك الشوق إليك، الشوق إلى رؤية ابتسامتك وإلى سماع ضحكاتك.

تنهدت أسيرا بسعادة، فطبع زاكاري قبلة على طرف أنفها. وتابع: وقع الدليل الأول الذي أشار إليّ أن أحذر، وقت العشاء في أمسيتنا الأولى في البيج هاوس، حين مشت أمي قدما في خططها لزواجنا. كانت فكرة الزواج عادة ترعبني ولكني لا أذكر أنني وقتذاك ارتعبت.

ـ ولكنك ارتعبت في ما بعد؟

ـ لم يكن الرعب إلا طبول تحذير. وكان عليّ أن أعرف، حين عدنا إلى لندن بدون الطفلة أن الوقت تأخر على التحذير. ومع ذلك لم أمتنع عن محاولة إبعادك عن تفكيري.

ـ ألهذا تصرفت بتلك الفظاظة عندما اتصلت لأطلب رقم هاتف أمك؟

ـ لم أكن أحاول فقط ذلك اليوم إخراجك من تفكيري بل التعاطي مع مشاعر الغيرة أيضاً.

صاحت بدهشة:

ـ أكنت تغار؟ لكن ممن؟ لم يكن لي صديق معين؟

ـ وهذا بالضبط ما جعلني متوتراً، ليس منك فحسب بل من نفسي أيضاً ولم يكن السبب وجود رجل محدد بل واقع أنك امرأة جميلة. ولم أصدق أن امرأة جميلة مثلك قد تبقى بدون حبيب

ولهذا قمت بزيارتك تلك الليلة وكانت غايتي أن أرى بنفسي إن كان عندك أحدهم.

همست بشيء من السخط: «زاكاري!»

قبلها بسرعة، ثم اعترف:

ـ أحسست بالراحة لأنني وجدت أنني الرجل الوحيد عندك.. وكان عليّ أن أعانقك قبل أن أخرج.. ولكن لم تكفني قبلة واحدة.

أكملت عنه بخجل:

ـ وتهاويت كالمجنونة حتى رأيت صورة غوليت مع نايغل.. فابتعدت عنك لأنه لا يجوز أن تنجرف وراء رغبة لا تمت بصلة إلى الحب.

ـ يا حبي الجميل.. تركت شقتك غاضباً، وأمضيت الأيام الأخرى حتى زيارتي يوم الجمعة في عذاب.. ولكنني عدت بالطبع لأحس بروعة وجودي معك ثانية وعندما ذهبت إلى النوم ليلة الجمعة، اضطررت للاعتراف بأنني أحبك وعندها وجدت أن عليّ أن أتزوجك.

ـ وعرفت ساعتئذ أنك تحبني!

هز رأسه إيجاباً.

ـ ولكنك عاملتني ببرودة حتى ظننت أن لا فرصة أمامي. ثم انزعجتِ فجأة لأن حقوقك بالنسبة للطفلة تنسل من بين أصابعك. وعندها وجدت الفرصة التي تمسكت بها وكان أن تجرأت على اقتراح الزواج بك.

تذكرت أستيرا بوضوح.

ـ كان هذا بعد ظهر السبت، وبعد ظهر ذلك اليوم أدركت لماذا لم أستطع إخراجك من تفكيري أيضاً.. ولماذا لم أجد

القدرة على السيطرة على مشاعري. خرجت في نزهة، وفي الطريق أدركت أنني أحبك.

همس: «يا حبيبي».

بعد ذلك صمتا دقائق طويلة ضمها خلالها بين ذراعيه، فتعلقت به.. ثم قبلها وابتعدا ليستجمعا أفكارهما. قالت له:

ـ لا شك في أن حبي هو ما دفعني لأقول لأمك إنك طلبت يدي وإنني قبلت.. ولقد أحسست بالرعب بعد خروج الكلمات مني.

ردّ برقة: «وأنا، لم أكن قط أشد سروراً خاصة وقد رأيتك تسارعين للدفاع عني بطريقة تشير إلى إعجابك بي ولو قليلاً. كنت مستعداً للتمسك ولو بقشة في هذا المجال.. أما مصالحة أمي ونايغل فغدت أمراً ثانوياً بالنسبة لي.. أردت حبك وفي اليوم التالي الذي دخلت فيه إلى غرفة الطعام، تصورت أنني أرى الحب في عينيك وكدت أخاطر بكل شيء لحظتئذ، وأضمك بين ذراعي».

ـ لكنك تذكرت في الوقت المناسب وجود أمك والكاهن؟

هز رأسه: «فجأة بدأت بمعاملتي ببرود ورغم ظني بأنك تكنين لي شيئاً من المشاعر خفت أن أقوم بخطوة تذعرك فأخسر بذلك الفرصة الصغيرة التي سنحت لي».

تنهدت: «آه، زاكاري؟»

ارتفعت يده اليمنى تداعب جانب وجهها ثم أكمل الشرح وعلى وجهه نظرة ملؤها الحب.

ـ اندفعت لسنوات في العمل واغتنمت الفرص لأحقق أهدافي.. وأخيراً بات من طبيعتي الاندفاع وراء ما أريد مهما كانت المخاطرة. حين أصبح الزواج بك أكبر هدف في حياتي،

ورأيت فرصة لتحقيقه اغتنمتها.. لكن، أستيرا يا قلبي، كيف أصف لك كيف كنت وأنا أواجه المخاطرة.. مخاطرة لم أكن أجرؤ على القيام بها.

صاحت: «حبيبي»

كان قلبها مفعماً حتى الأعماق بحب كبير. فجأة كان عليها أن تقول:

- ما كنت لتشك أبداً في مشاعري نحوك لو عرفت عذاب الغيرة التي اعتملت في نفسي منذ عرفت أنك على علاقة مع سيدة متزوجة.

قال بسرعة يبتسم لها:

- سامحيني حلوتي.. كنت مغتبطاً بترتيب أمر زواجنا وأثناء عودتنا إلى لندن ذلك الأحد نسيت أن خطوبتنا غير طبيعية.. كنت مفعماً بالفرح، ناسياً كل الحقيقة حتى سألتني عن سبب رغبتي في الزواج بك، وهذا ما جعلني حذراً. هل فضحت أمر حبي لك؟

ردت حالمة: «لا، لم تفعل»

- أعرف هذا.. ولكنني وقتذاك أدركت من خلال لهجتك أنك لا تريدين حبي. عرفت هذا ساعتئذ وعرفت أنني لو قلت لك حقيقة رغبتي في الزواج بك، لتضاءلت فرص الزواج. ولأنني لم أستطع تحمل إلغاء الزواج.. اضطررت إلى التفكير بسرعة.

ابتسمت: «أيها الماكر!»

ضحك وهو يقول:

- أحست بالغيرة في صوتك حين اتصلت بك ليل أمس. وهذا ما آلمني كثيراً.. كنت أود الاتصال بك طوال الأسبوع، ولكن بعدما أقفلت السماعة في وجهي مساء الاثنين، عرفت أن ارتكابي أية هفوة ستنهي فرصتي الوحيدة للزواج بك.. ومنذ أن

تفجر كل شيء في منزل والدتي يومي الثلاثاء والأربعاء كنت كمن يمشي على بيض ولم أشعر براحة إلا عندما سألتني عما إذا كان مالكولم سيصحبني إلى الكنيسة فقولك ذلك جعلني أتأكد من وجودك هناك ومن بقائك على رأيك بشأن زواجنا وخشية أن أفضح شيئاً بزلة لسان، سارعت إلى إنهاء المكالمة.

قبلها مجدداً، وكانت مقطوعة الأنفاس حين نظر إلى عينيها وهمس: «آه، أستيرا يا قلبي، أحبك كثيراً»

ردت بوهن: «أحبك زاكاري»

لكن صوتها كان أقوى حين سألت، ولو مترددة:

- أكنت ستبوح لي بحبك لولا فراري؟

اعترف بصدق: «لا أعرف، ولكنني كنت أمني النفس بأننا بعد قضاء شهر بعيداً عن الأهل والأصحاب قد..»

صاحت: «شهر! ولكنني وافقت على عطلة أسبوع..»

- وأي نوع من الأزواج تظنينني؟ أسبوع؟ كنت قد أعددت طائرة لتقلنا إلى جزيرة حيث لا طريق للعودة منها إلا بطلب خاص.

كانت أستيرا تفكر «بشهر العسل» وهو يضيف:

- لقد أفشلت خططي برفضك العيش معي بعد زواجنا.. فأخبريني يا امرأة.. أما زلت مصممة على موقفك؟

وتهقهت أستيرا بدون أن تستطيع منع نفسها.. إنها تحب زاكاري، وهو يحبها.. أعلمتها نظرة عينيه أنه معجب برنة ضحكتها، لكن ضحكتها تلاشت حين ردت صادقة على سؤاله، وقالت بصوت منخفض:

- سيعجبني.. جداً.. جداً.. أن أنتقل للعيش معك.

قال ولهجته تقول إنه ما كان ليقبل برد آخر:

ـ عظيم.. وماذا عن الطلاق؟

أجابت بوقار:

ـ لم أعد أرغب في الطلاق منك.

حضنها بلطف.. ثم كان هناك شيء أخير يخبرها به قبل أن يصحبها إلى جزيرة شهر العسل.. فقد قال يطلب:

ـ إذن.. هل لك أن ترضيني، سيدة نورتنغاتون، بأن تعيدي خاتم الزواج إلى اصبعك..

صاحت: «زاكاري حبيبي».

أدركت الآن أنه يشعر بما تشعر به من شغف وحب، وكان هذا الشعور قد راودها عندما تبادلا القسم وأعلنت بملء إرادتها أنها ستطيعه!

* * *

rewity.com